# الرسول ﷺ والرسالة

## في شعر أبي طالب

### نظرة في مواقف أبي طالب وشعره

الشيخ معوض عوض ابراهيم

الناشر

وكالة المطبوعات

شارع فهد السالم - الكويت

# بسم الله الرحمن الرحيم

## المدخل الى البحث

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلاة وسلاما على عبد الله ورسوله نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ورضى الله عن آله وصحابته الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه حتى نلقى الله ..

وبعد : فلقد أسهمت منذ قريب بالقاء محاضرة فى المسجد الجامع بالرياض فى نشاط الدعوة الذى وضعه فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله ابن باز الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والارشاد فى المملكة العربية السعودية ..

وكان موضوع المحاضرة : « الهجرة : دوافعها ، ونتائجها »

وكم أسعدنى شهود الشيخ الجليل للمحاضرة ، وتعليقه عليها مرتين قبل صلاة العشاء وبعدها ، بما أفدت منه ، وأعتز به كثيراً ..

وكنت قد تمنيت على الشيخ — حفظه الله — أن يأمر أحد خاصته بجمع ما تفرق فى أمهات كتب السيرة والمراجع التاريخية والأدبية ، من شعر أبى طالب الذى تحفى فيه بالإسلام ورسوله عليه الصلاة والسلام ، فهو — وإن كان الإسلام ورسوله فى غنى بخواصهما عن قول المنصفين فيهما — مما يمكن أن يكون حجة على طالبى الدليل ممن لم يؤمنوا بدين هو فوق الشك والتهم وكفى بالله شهيداً .

وانقضت فترة حسبت أن الشيخ قد شغلته شواغله الموصولة عما تمنيته عليه ، لكننى فوجئت بتكليف فضيلته لى بالذى تمنيته ، فبادرت من فورى

إلى ماداتى من المراجع المعينة على الترجمة لأبى طالب ، وإبراز مواقفه مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وإيراد شعره فى هذه المواقف ، مؤثرا منه ما صحح الرواة نسبته إليه ، مع دراسة موضوعية ، أشرح فيها الألفاظ وأقدم المعانى المعبرة عن عمق حب أبى طالب ومعرفته لابن أخيه الذى كان يدعوه منذ طفولته — المبارك — وخلافه لقومه فى الذب عنه .. ثم أحاول كشف دوافع أبى طالب إلى ما انتهت عليه حياته ، وخرج به من دنياه ، وهو الحق الذى لو كان للعاطفة شأن فيه لكان لهذا البحث غير هذا الوجه !

ومن الله أستمد العون والتوفيق على التزام هذا المنهج ، والدنو من الغاية التى أرادها الشيخ الجليل ، وعلى الله قصد السبيل .

« ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير »

**معوض عوض إبراهيم**
الباحث بالرئاسة
١٣٩٦/٥/١٢
١٩٧٦/٥/١١

## محمد بين جده وأعمامه :

ولد محمد صلوات الله عليه يتيما فآواه الله تعالى كما امتن عليه فقال «ألم يجدك يتيما فآوى »(١) . فكفله جده عبد المطلب ، « ورق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده ، فكان لا يفارقه ، وما كان يجلس على فراشه إجلالا له إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) ولا يوضع الطعام لعبد المطلب إلا نادى : يا بنى ، فيؤتى بمحمد إليه ، وكان يجلس على مقعده وأبناؤه جلوس من حوله ، فيقدم محمد فيتخطى أعمامه إلى حيث يجلس جده ، فإذا أرادوا أن يجلس بينهم ، قال لهم عبد المطلب . . « دعوا ابنى ، فوالله إن له لشأنا »(٣) .

وكان عبد المطلب من سادات قريش ، محافظا على العهود ، يتخلق بمكارم الأخلاق ، يحب المساكين ويقوم بالحجيج ، ويطعم حتى الوحوش والطير فى رؤوس الجبال ، ويطعم فى الأزمات ، ويقمع الظالمين »(٤) .

ولم يكن عجبا أن ينزع إليه الناس يوم هاجم أبرهة مكة واستاق الإبل ، وهدد وتوعد بهدم الكعبة عام الفيل ، ومولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كان مهيبا مقدورا عند أبرهة فلم يلبث أن سرح إبل القوم فور لقاء عبد المطلب له .

ولما أرسلت آمنة بنت وهب إلى عبد المطلب تبشره بولادة ابنها « أقبل مسروراً ، وسماه محمداً ، ولم يكن هذا الاسم شائعا قبل العرب ، ولكن أراد الله أن يحقق ماقدره وذكره فى الكتب التى جاءت بها الأنبياء كالتوراة والانجيل »(٥) .

---

(١) الآية ٦ فى سورة الضحى .
(٢ ، ٤) سيرة ابن هشام
(٣) تاريخ ابن عساكر
(٥) نور اليقين للشيخ الخضرى

قال العباس « فأعجب عبد المطلب جده ، وحظى عنده »(١) ولقد نهل العباس من مورد أبيه فهو الذى قال فى مولد ابن أخيه :

وأنت لما ولدت أشرقت الأر ض ، وضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذلك الضياء وفى النو ر ، وسبل الرشـــاد نخترق

قال ابن إسحاق .. « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة ، ومع جده عبد المطلب فى كلاءة الله وحفظه ، وينبته الله نباتا حسنا لما يريد به من الكرامة . . ويروى ابن كثير وغيره الكثير من شعر عبد المطلب الجياش بمشاعر الإحساس بنبوة حفيده صلوات الله عليه .

وضاعف من حدب عبد المطلب وأبنائه على محمد موت أمه وهو فى السادسة من عمره .

وأصح ما قيل فى دين عبد المطلب أنه كان على دين الجاهلية برغم الأحاديث التى ذكرها ابن كثير(٢) ، وساق أقوال العلماء فيها ثم قال « والمقصود أن عبد المطلب مات على ما كان عليه من دين الجاهلية ، خلافا لفرقة الشيعة فيه وفى ابنه أبى طالب — على ما سيأتى — وقد قال البيهقى — بعد روايته لهذه الأحاديث فى كتابه دلائل النبوة — « وكيف لا يكون أبواه وجده عليه الصلاة والسلام بهذه الصفة فى الآخرة وقد كانوا يعبدون الوثن حتى ماتوا ، ولم يدينوا دين عيسى بن مريم عليه السلام ؟ وكفرهم لا يقدح فى نسبه عليه الصلاة والسلام ، لأن أنكحة الكفار صحيحة ، ألا تراهم يسلمون مع زوجاتهم فلا يلزمهم تجديد العقد ولا مفارقتهن ، إذا كان مثله يجوز فى الإسلام .. » . أ هـ كلامه .

قال ابن كثير « وإخباره صلى الله عليه وسلم عن أبويه وجده عبد المطلب بأنهم من أهل النار لا ينافى الحديث الوارد عنه من طرق متعددة : إن أهل

---

(١) سيرة ابن هشام (٢) البداية والنهاية حـ ٢

الفترة والأطفال والمجانين والصم يمتحنون فى العرصات يوم القيامة كما بسطناه سندا ومتنا فى تفسيرنا عند قول الله تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .. فيكون منهم من يجيب ، ومنهم من لا يجيب ، فيكون هؤلاء من جملة من يجيب ، فلا منافاة .. .

قال : « وأما الحديث الذى ذكره السهيلى وذكر أن فى إسناده مجهولين إلى ابن أبى الزناد عن عروة عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يحيى أبويه فأحياهما وآمنا به فإنه حديث منكر جداً ، وإن كان ممكنا بالنظر إلى قدرة الله تعالى لكن الذى ثبت فى الصحيح يعارضه .. أ هـ (١)

وليس أحد أحنى على رسول الله صلوات الله عليه من الله ..

ومات عبد المطلب والنبى صلى الله عليه وسلم فى الثامنة من عمره بعد أن أوصى به إلى عمه أبى طالب لكونه شقيق أبيه عبد الله ، فأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، وشدد عبد المطلب فى وصاة أبى طالب بحفظ رسول الله وحياطته ، بعد أن رد سمعه مرات إلى ما يقول الناس عن محمد وشواهد نبوته ..

**أبو طالب :**

قال الإمام ابن حجر « أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصى ، القرشى الهاشمى ، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شقيق أبيه ، أمهما « فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية » اشتهر بكنيته ، واسمه عبد مناف على المشهور ، وقيل عمران » وقال الحاكم : « أكثر المتقدمين على أن اسمه كنيته .. » أ هـ (٢)

---

(١) البداية والنهاية حـ ٢ (٢) الإحياء حـ ٤ القسم الرابع ص ١١٧

ولما صار أمر محمد إلى عمه كان به حفيا ، وكان إليه ومعه — كما قال ابن إسحاق — وقال الواقدى بسنده عن مجاهد وعن ابن عباس وغيرهما قالوا : « لما توفى عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يكون معه .. وكان أبو طالب لا مال له ، وكان يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه . وصبا به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشىء قط ، وكان يخصه بالطعام ، وكان إذا أكل عيال أبى طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا ، فكان إذا أراد أن يغديهم قال : كما أنتم حتى يأتى ولدى ، فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم ، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب لابن أخيه : إنك لمبارك ، وكان الصبيان يصبحون رمصا شعثا ، ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم دهينا كحيلا » أ هـ (١)

وكان لمحمد بعمه من الحنين مثل ما بعمه له ، فلما تهيأ أبو طالب للرحيل إلى الشام وأجمع السير مع أشياخ من قريش للتجارة تعلق به النبى ورغب فى الخروج معه وكان ابن اثنتى عشرة سنة وهى مرحلة من العمر تصدق فيها العواطف ، وتصح الأحاسيس ، فكيف بها فى إنسان كريم ، اصطنعه الله لنفسه ، وأعده للرسالة الكبرى ؟!

فرق أبو طالب لابن أخيه وأجابه إلى ما ابتغى وقال : « والله لأخرجن به معى ، ولا أفارقه ولا يفارقنى أبداً » ، أو كما قال »(٢)

وقد عرض ابن عساكر جملة من الأخبار عن خروج أبى طالب إلى الشام، وقدومه على بصرى ومعه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأول هذه الأخبار عن أبى موسى — والرواية كما ستأتى أوردها ابن كثير فى البداية والنهاية

---

(١) البداية والنهاية حـ ٢ (٢) المصدر السابق

من قول الخرائطي بسنده عن أبي بكر عن أبيه قال : « خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشياخ ، فلما أشرفوا على الراهب ، هبطوا وحلوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت فبينما هم يحلون رحالهم إذ به قد جعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين » .

فقال له أشياخ من قريش : وما علمك ؟ قال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدا ، ولا يسجدون إلا لنبي ، وإني لأعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة » .

ثم رجع فصنع لهم طعاما ، فلما أتاهم به وكان هو في رعية الإبل قال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه ، فقال « انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه » قال :

« فبينما هو قائم ، وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه . فالتفت فاذا هو بسبعة نفر قد أقبلوا من الروم ، فاستقبلهم فقال : ما جاء بكم ؟ قالوا : جئنا ، أن هذا النبي خارج في هذا الشهر ، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس وإنا قد أخبرنا خبره فبعثنا إلى طريقك .

قال : فهل خلفكم أحد هو خير منكم ؟! قالوا : لا إنما اخترنا خيرة (١) لطريقك هذه .

قال : أفرأيتم إذا أراد الله أمرا أن يمضيه ، هل يستطيع أحد أن يرده ؟!

---

(١) رواية ابن كثير « إنما أخبرنا خبره » ولعل سؤال الراهب يرجح ما ذكرته من رواية ابن عساكر .

قالوا : لا .. قال : فبايعوه وأقاموا معه عنده ، قال : فقال الراهب — أى للقوم — : أناشدكم الله أيكم وليه؟!

قال أبو طالب : أنا ، فلم يزل يناشده حتى رده وبعث معه أبو بكر بلالا » . أ هـ (١)

قال ناشر تاريخ ابن عساكر . . « هذا الحديث أخرجه الترمذى عن ابن أبى موسى عن أبيه ، قال فى آخره : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .

وقال ابن القيم فى زاد المعاد : وقع فى كتاب الترمذى أن أبا طالب بعث معه بلالا « وهو من الغلط الواضح فان بلالا إذ ذاك لعله لم يكن موجودا .. »

ورد الناشر على هذا القول لابن القيم بقوله : فلم لا يجوز أن يكون المقصود بلالا آخر ؟! (٢)

أورد ابن كثير هذا كله من طريق الحافظ الخرائطى ، ثم ساق رواية الترمذى ، والحاكم والبيهقى وابن عساكر ، وغير واحد من الحفاظ من حديث أبى نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعى مولاهم ، ويقال له الضبى ويعرف بقراد ، سكن بغداد وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخارى ، ووثقه جماعة من الأئمة والحفاظ ولم أر أحدا جرحه ، ومع هذا فى حديثه هذا غرابة ، وأورد قول البيهقى الذى أسلفناه ، وقول العباس الدورى : ليس فى الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبى نوح ، وقد سمعه منه أحمد بن حنبل رحمه الله ويحيى بن معين لغرابته وانفراده . حكاه البيهقى وابن عساكر (٣)

قال ابن كثير « فى البداية والنهاية » عقب هذا كله « فيه — أى الحديث — من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة فإن أبا موسى الأشعرى إنما قدم فى سنة خيبر سنة سبع من الهجرة ، ولا يلتفت إلى قول ابن إسحاق فى جعله

(١ ، ٢) ابن عساكر (٣) البداية والنهاية ص ٢٨٥ جـ ٢

له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، وعلى كل تقدير فهو مرسل ، فإن هذه القصة كانت ولرسول الله صلى الله عليه وسلم من العمر — فيما ذكره بعضهم — اثنتا عشرة سنة ، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي صلى الله عليه وسلم فيكون أبلغ . أو من بعض كبار الصحابة رضى الله عنهم ، أو كان هذا مشهورا مذكورا أخذه من طريق الاستفاضة .

الثانى : أن الغمامة لم تذكر فى حديث أصح من هذا .

الثالث : أن قوله « وبعث معه أبو بكر بلالا » إن كان عمره يومئذ اثنتى عشرة سنة فقد كان عمر أبى بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشرة ، وعمر بلال أقل من ذلك ، فأين كان أبو بكر إذ ذاك ؟! ثم أين كان بلال ؟ كلاهما غريب ، اللهم إلا أن يقال : إن هذا كان ورسول الله صلى الله عليه وسلم كبير ، إما أن يكون سفره بعد هذا ، أو إن كان القول بأن عمره كان إذ ذاك اثنتى عشرة سنة غير محفوظ فانه إنما ذكره مقيدا بهذا الواقدى ، وحكى السهيلى عن بعضهم ، أنه كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك تسع سنين.. والله أعلم (١) .

وانتهى ابن عساكر فى تاريخه ، وابن كثير فى «البداية والنهاية» بعد ذلك إلى إيراد ما روى محمد بن سعد عن داود بن الحصين — كما قال ابن عساكر — أو ما روى الواقدى بسنده عن داود بن الحصين كما قال ابن كثير — قالوا — « لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة سنة خرج به عمه أبو طالب إلى الشام فى العير التى خرج فيها للتجارة ، ونزلوا بالراهب بحيرا فقال لأبى طالب بالسر ما قال ، وأمره أن يحتفظ به فرده معه أبو طالب إلى مكة » . أ هـ

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢

ولقد طال إيراد الكلام فى خروج الرسول صلى الله عليه وسلم مع عمه، وحسبنا ما فيه من دلالة على رعاية أبى طالب لابن أخيه الذى شب فى كلاءة الله وحفظه، «وكان عمه يحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها لما يريد من كرامته حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقا وأكرمهم مخالطة وأحسنهم جوارا وأعظمهم حلما وأمانة، وأصدقهم حديثا، وأبعدهم من الفحش والأذى، ما رؤى ملاحيا ولا مماريا أحدا، حتى سماه قومه الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة فكان أبو طالب يحفظه ويحوطه وينصره ويعضده حتى مات» (١)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغض الأوثان أشد البغض، ولعل ذلك يظهر من إجابته لبحيرا حين سأله بحق اللات والعزى أن يخبره عما يسأله عنه فقال صلوات الله عليه: لا تسألنى باللات والعزى شيئا فوالله ما أبغضت شيئا بغضهما.. وإنما سأله بحيرا بهما لأنه سمع القوم يحلفون بهما (٢).

وكان صلوات الله عليه — كما قال البيهقى — على ما بقى من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولم يشرك بالله قط صلوات الله وسلامه عليه.

ومن شعر أبى طالب فى خروج النبى معه إلى الشام كما روى ابن عساكر فى تاريخه وابن كثير فى «البداية والنهاية»: —

| | |
|---|---|
| إن ابن آمنة النبى محمدا | عندى بمثل منازل الأولاد |
| لما تعلق بالزمام رحمته | والعيس قد قلصن بالأزواد (٣) |
| فارفض من عينى دمع ذارف | مثل الجمان مفرق الأفراد (٤) |
| راعيت فيه قرابة موصولة | وحفظت فيه وصية الأجداد |

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٦. (٢) المصدر السابق ص ٢٨٤
(٣) قلصن: ارتفعن (٤) ارفض: تنزل — دمع ذارف أو سائل

وأمرته بالسير بين عمومة ... بيض الوجوه مصالت أنجاد (١)
ساروا لأبعد طية معلومة ... فلقد تساعد طية المرتاد (٢)
حتى إذا ما القوم بصرى عاينوا ... لاقوا على شرك من المرصاد
خبرا فأخبرهم حديثا صادقا ... عنه ، ورد معاشر الحساد
قوما يهودا ، قد رأوا لما رأى ... ظل الغمام وعين ذى الأكباد
ساروا لقتل محمد ، فنهاهم ... عنه ، وأجهد أحسن الإجهاد
وقال : —

ألم ترنى من بعد هم هممته ... بفرقة حر الوالدين حرام
بأحمد لما أن شددت مطيتى ... وحلوا وقد ودعته بسلام
بكى جزعا ، والعيس قد فصلت بنا ... وأخذت بالكفين فضل زمام
ذكرت أباه حين رقرق عبرة ... تجود من العينين ذات سجام
فقلت تروح راشدا فى عمومة ... قياسير فى الهيجاء ، غير لئام
فرحنا مع العير التى راح أهلها ... شآم الهدى ، والأصل غير شآم
فلما هبطنا أرض بصرى تشرفوا ... لنا فوق دور ينظرون جسام
فجاء بحيرا عند ذلك حاشدا ... لنا بشراب طيب ، وطعام
فقال : اجمعوا أصحابكم لطعامنا ... فقلنا : جمعنا القوم غير غلام
يتيما ، فقال ادعوه إن طعامنا ... كثير عليه اليوم غير حرام
فلما رآه مقبلا نحو داره ... يوقيه حر الشمس ظل غمام
حنى رأسه مثل السجود ، وضمه ... إلى نحره والصدر أى ضمام
وأقبل ركب يطلبون الذى رأى ... بحيرا من الأعلام وسط خيام
فثار إليه خشية لعرامهم ... وكانوا ذوى زهو معا وعرام

---

(١) مصالت : سريعو النخوة جمع صلت (٢) طية المرتاد : بغية الطالب .

دريسا وتماما وقد كان فيهم زبيرا ، وكان القوم غير نيام
فجاءوا وقد هموا بقتل محمد فردهم عنه بحسن خصـــام

والقصيدتان وإن اختلفتا وزنا وقافية ، قد اتفقتا في جل معانيهما ، ولا بأس بذلك فهما في مناسبة واحدة هي مشاعر محمد صلوات الله عليه في خروج عمه ، وأصداء هذه المشاعر ، وما أثارته من حقائق إعزاز أبي طالب لابن أخيه ، وإبراز ما كان يعرفه عن المبارك صلوات الله عليه كما كان يدعوه مما استفاض على الألسنة ، وتوارثه الأبناء عن الآباء من أنباء نبوة حان حينها ، وآن أوانها ، والتقت مؤشراتها الكثيرة عند محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن الأثير في الكامل في ترجمته لكعب بن لؤى : من آباء النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يخطب الناس أيام الحج ، وخطبته مشهورة يخبر فيها بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن كثير في « البداية والنهاية » ص ٢٤٤ ج ٢ بسنده : كان كعب ابن لؤى يجمع قومه يوم الجمعة وكانت قريش تسميه العروبة فيخطبهم فيقول : —

« أما بعد ، فاسمعوا وتعلموا ، وافهموا واعلموا ، ليل ساج ، ونهار ضاح ، والأرض مهاد ، والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعلام ، والأولون كالآخرين ، والأنثى والذكر ، والروح وما يهيج إلى بلى ، فصلوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أقوالكم ، فهل رأيتم من هالك يرجع ؟ أو ميت نشر ؟ ! الدار أمامكم ، والظن غير ما تقولون ، حرمكم زينوه وعظموه ، وتمسكوا به ، فسيأتي له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبي كريم ، ثم يقول : —

نهار وليل كل يوم بحادث سواء علينا ليلها ونهـــارها
يؤوبان بالأحداث حتى تأوبا وبالنعم الضافي علينا ستورها

على غفلة يأتي النبي محمد          فيخبر أخبارا صدوق خبيرها

ثم يقول : « والله لو كنت فيها ذا سمع وبصر ، ويد ورجل ، لتنصبت فيها تنصب الجمل ، ولأرقلت بها إرقال الحجل ، ثم يقول : —

يا ليتني شاهد نجـــواة دعوته          حين العشيرة تبغي الحق خذلانا

قال ابن كثير : « وكان بين موت كعب بن لؤى ومبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة وستون سنة » . ا هـ

والنثر والشعر من كلام كعب — على دلالاتهما المعبرة — يرجح بهما — فيما أرى — نثر قس بن ساعدة الإيادى وشعره « اللذان سمعهما النبي صلوات الله عليه قبل مبعثه فى عكاظ » وكان النبي يذكر ذلك ويحب أن يسمعه ممن شهد قسا فى عكاظ يخطب .. كما روت الصحاح عن أنس بن مالك وغيره ، فى لقاء وفد إياد للنبي صلى الله عليه وسلم وفيه « ترحم النبي عليه » ويرجح بهما كذلك كلام ورقة بن نوفل وشعره فى زواج النبي من خديجة ، وفى بدء بعثته صلوات الله عليه . .

قال إبن اسحاق «وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى وكان ابن عمها وكان نصرانيا قد تبع الكتب وعلم من علم الناس — ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه . فقال ورقة : « لئن كان هذا حقا يا خديجة ، إن محمدا لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر ، هذا أوانه » أو كما قال ، فجعل ورقة يستبطىء الأمر ويقول :

« حتى متى » ؟! ومن شعر ورقة فى ذلك قصيدته التى مطلعها :»(١)

« لججت وكنت فى الذكرى لجوجا »

---

(١) سيرة بن هشام ط ص ٢٠٦

وقد أورد ابن هشام فى السيرة منها ثلاثة عشر بيتا . . ومنها :

بما خبرتنا من قول قس من الرهبان ، أكره أن يعوجا (١)
بأن محمداً سيسود قوما ويخصم من يكون له حجيجا (٢)

. . . . . . . . .

فيا ليتى إذا ما كان ذاكم شهدت وكنت أولهم ولوجا

وقصيدته التى أوردها ابن كثير (٣) ومطلعها :

أتبكر أم أنت العشية رائح وفيهــا يقول :

بأن ابن عبد الله أحمد مرسل إلى كل من ضمت عليه الأباطح
وظنى به أن سوف يبعث صادقا كما أرسل العبدان : هود وصالح
وموسى وإبراهيم حتى يرى له
بهاء ومنشور من الذكر واضح
فإن أبق حتى يدرك الناس دهره
فانى به مستبشر الود فارح
وإلا فانى يا خديجة فاعلمى
عن ارضك فى الأرض العريضة سائح

وغير هذا من شعره الذى أورده ابن كثير بسنده وقال :

« إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يستشهد فى بعض الأحيان بشىء من شعر ورقة .. » .

---

(١) القس : عابد النصارى . يعوج : يقف أو يرجع : يريد يخشى تأخره
(٢) يخصم : يغلب الحجيج المناظر — من هامش ابن هشام ص ٢٠٧
(٣) البداية والنهاية ص ٢

واستشهاد عمر وحسبك به، ورواية ابن كثير لذلك شواهد نسبة هذا للورقة بما فيه من عمق وصدق .

وفى الحديث الذى اتفق عليه الشيخان قول ورقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم « . . وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزرا » أى نصراً عزيزا أبداً . .

وهى كلمات تغلف إيماناً حقاً ، لقد قالها الرجل دون أن يسوقه إليها شىء إلا ما وقر فى قلبه من أن محمد بن عبد الله هو مصداق ما قرأ وسمع وسارت به الركبان من أمارات نبى استبطأ ورقة أمره .

وقد روى ابن كثير بسنده عن عائشة ، وعن جابر بن عبد الله فى حديث آخر أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن ورقة بن نوفل فقال «قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض » ومعنى ذلك كما قال صلوات الله عليه « فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بياض » .

إن فى الإرهاصات التى تبلورها هذه الكلمات إجابة عن تساؤل قد يبرز إلى الأذهان من قول أبى طالب « إن ابن آمنة النبى محمدا — . . . — فى هذه المناسبة المبكرة من حياة محمد صلى الله عليه وسلم كفالة عمه أبى طالب ، وتمضى الأبيات بعد ذلك — كما ذكرت — فى بيان مشاعر النبى وأحاسيس عمه نحوه ، وموقف بحيرا منه ، بعد ما عرف أنه النبى المنتظر . .

كانت الأيام تشد عرا ود صادق فى قلب أبى طالب لمحمد ابن أخيه ، بما يضيفه محمد بأخلاقه وعلوهمته وتساميه عما يخر إلى الأذقان فيه لداته من لهو وإثم .. فهو صلوات الله عليه فى العشرين من عمره يشهد حرب الفجار ، وكان الزبير بن عبد المطلب رئيس بنى هاشم فى اليوم الذى كان أشد أيام العرب هولا كما قال الشيخ الخضرى(١) وكان شهوده عليه الصلاة

---

(١) « نور اليقين » وقد قال ابن هشام : « وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم=

والسلام له إلى جوار أعمامه الزبير وأبى طالب وحمزة والعباس عملا عن كثب ؛ وإسهاماً يتمثل فى مناولته للرماح والسهام والنبل ، وهى آلات الحرب يومئذ ، وما كان أنعم باله ، وهو يعود من حرب الفجار ، التى ردت لمكة حرمتها وهيبتها ليشهد « حلف الفضول » الذى استهدف أن لايدع الرجال عند أحد فضلا يظلمه أحدا إلا أخذوه له منه — كما قال الشيخ الخضرى(١) وكان يومئذ بين أعمامه وهى صحبة دالة على إعزازهم له ، وتعلقهم به وإعجابهم بأحاسيسه الشريفة ، واهتماماته منذ بكرة حياته بمعالى الأمور صلوات الله ، أليس هو القائل « لقد شهدت بدار عبد الله ابن جدعان حلفا ما وددت أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت » فهو عليه الصلاة والسلام نبى السلام .

رعى النبى صلوات الله عليه فى طفولته الباكرة الغنم ، « وما من نبى إلا رعى الغنم » ولكن ماذا عسى أن يفيد من رعى الغنم صلوات الله عليه وراء المعانى النفسية والصحية التى أفادها وكانت بتوفيق الله من أمضى أسلحته فى صنع الأمة التى أراد الله أن تكون « خير أمة أخرجت للناس » ؟ !

كان أبو طالب كثير العيال قليل المال ؛ ومحمد من بين أبناء عمه لعله يلحظ هذا المعنى الذى لا يلحظونه ، أو لعله كان أقدرهم على أن يحمل مع عمه بعض أعباء أسرته ، فلا عجب أن يصارح أبو طالب ابن أخيه بأمره ، وأن يدعوه إلى الخروج مع لداته — صلوات الله عليه — عاملا فى تجارة خديجة ، قال ابن عساكر : قالت نفيسة بنت منية أخت يعلى : « لما بلغ رسول الله صلوات الله عليه — خمسا وعشرين سنة قال له أبو طالب : أنا رجل

---

= بعض أيامهم ، أخرجه أعمامه معهم ، وقال صلى الله عليه وسلم « كنت أنبل على أعمامى » أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم » .

(١) حـ ٢ ص ٢٧٣

لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومها فى عيرانها ، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك ! ! .

وبلغ خديجة ماكان من محاورة عمه له ، فأرسلت إليه ، وقالت : « أنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك »(١) .

ويقول ابن كثير « قال ابن إسحاق : وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال على مالها مضاربة ، فلما بلغها عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج لها فى مال تاجرا إلى الشام ، وتعطيه أفضل ما تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله منها وخرج فى مالها ذاك .. » .

وفى رواية أخرى أن أبا طالب حدث خديجة فى أن يخرج محمد صلى الله عليه وسلم عاملا فى تجارتها مع رجالها ، فقالت وفى نفسها إعزاز كبير للنبى بما سمعت من أخباره : لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا ، فكيف وقد سألته لحبيب قريب ؟ ! فقال أبو طالب للنبى صلى الله عليه وسلم : « هذا رزق ساقه الله إليك » ..

وكلام خديجة فى هذه الرواية على ما فيه من عرفان لقدر أبى طالب بين رجال مكة ، ولابن أخيه محمد صلوات الله عليه ، فانه يغلف معانى حب لمحمد ، ويبرز نحوه عاطفة شريفة أماط الله عنها اللثام ، فى زواج خديجة رضوان الله عليها من النبى صلى الله عليه وسلم ..

وتتحدث كتب السيرة والتاريخ عن رحلة النبى الثانية إلى الشام بعد رحلته الأولى مع عمه أبى طالب وما شاهد ميسرة وعاين من أمر محمد

---

(١) المصدر والصحيفة .

منذ فصلت العير وحتى عادوا من الشام إليها ، وقد ربحوا سفرهم ذلك ما لا عهد لخديجة ولا لغيرها بمثله منذ غذت القوافل سيرها فى رحلة الشتاء والصيف ، لقد عاد الدرهم الواحد أربعة دراهم ، وكانت خديجة تسمع بأذنيها وبخفق قلبها بأحاسيس كريمة نحو محمد بن عبد الله ، لعلها أثر ما روى ابن عساكر : إن خديجة كانت فى علية لها وهى تبصر رسول الله راجعا وهو على بعيره وملكان يظللانه ، فأرت ذلك نساءها ، فعجبن لذلك ، ودخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرها بما ربحوا فى وجههم ، فسرت بذلك ... »(١) .

قال ابن كثير « فلما قدم مكة على خديجة بمالها ، باعت ما جاء به ، فأضعف أو قريباً ، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملائكة إياه ، وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراد الله بها من كرامتها ، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها ، بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت له — فيما يزعمون — « يا ابن عم ، إنى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك (٢) فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك » ثم عرضت نفسها عليه ، وكانت أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالا ، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه ، فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ذلك لأعمامه ... (٣) .

### أبو طالب وزواج النبى من خديجة :

وكان أبو طالب أنعم الناس بالا ، وأسعدهم قلبا بكل ما يصيب محمد من خير ، وكان أثلج قومه صدرا بما كانت تجيش به القلوب من حب ابن

---

(١) حـ ٢ ص ٢٩٤ .
(٢) سطتك فى قومك : من الوسط الذى هو خير الأمور
(٣) نور اليقين للخضرى وضئضئ معد : أصلهم .

أخيه صلوات الله عليه ، وكان سروره كبيرا بأنباء رغبة خديجة فى أن تكون زوجاً للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان سنها نحو الأربعين وكان هو فى الخامسة والعشرين ، ولقد كان أبو طالب على رأس أعمام النبي — فى الصحيح — حين خطبوا خديجة من عمها عمرو بن أسد للنبي وخطب يومئذ أبو طالب خطبته التى صارت فى الدين الذى أدى بعد أمانته النبي صلى الله عليه وسلم سنة متبعة وأدبا مساوكا فقال « الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وضئضىء معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعله لنا بيتاً محجوجا ، وحرما آمنا ، وجعلنا حكام الناس ، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل شرفا ونبلا وفضلا ، وإن كان فى المال قل ، فان المال ظل زائل وأمر حائل ، وعارية مستردة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق « كذا » (١) .

قال المحب الطبرى فى كتابه « السمط الثمين » وحضر أبو طالب ورؤساء مضر فخطب أبو طالب وساق الخطبة قريبا مما أسلفت . سوى قوله « وقد بذل لها ما آجله وعاجله من مالى « كذا » ثم قال المحب الطبرى : فلما أتم أبو طالب خطبته تكلم ورقة بن نوفل فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا على معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار » .

ثم سكت ورقة فقال أبو طالب : قد أحببت أن يشركك عمها ،

---

(١) نور اليقين للخضرى .

فقال عمها عمرو بن خويلد : اشهدوا علي يا معشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد . وشهد على ذلك صناديد قريش .

وحسب أبي طالب حدباً وعرفانا لحق ابن أخيه ما يبدو من خلال خطبته تلك وما جعل من الصداق في ماله . . على الرواية التي ذكرت ذلك . : فإن ابن هشام يقول « وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بكرة »(١) .

وقال ناشر « نور اليقين » : « أصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم : اثنتي عشرة أوقية ونصفا من الذهب والأوقية أربعون درهما شرعياً » (٢) .

وقالت خديجة بعد ذلك : « يا محمد مر عمك ينحر بكرا من بكارك ، وأطعم الناس على الباب ، وهلم فقل مع أهلك » .

فأطعم النبي الناس ودخل فقال مع أهله خديجة ، فأقر الله عينه ، وفرح عمه أبو طالب فرحاً شديدا وقال : « الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب ، ودفع عنا الهموم » !!

إن السعة والدعة والاستقرار التي هيأها الله لمحمد صلى الله عليه وسلم كانت تعكس في نفس أبي طالب كل معاني الرضا والارتياح ، فلم يعد محمد يضيف تبعات حياته إلى عمه ، وإنه على العكس من ذلك غدا إلى عمه العباس بعد قليل من حياته الجديدة يتدارسان ما ينبغي أن يعملاه كي يخففا عن أبي طالب وأسرته تكاليف الحياة !!

وكم تكون الكلمة الحانية أبلغ في الدلالة على الشكر من أجزل

---

(١) حـ ١ ص ٢٠٦

(٢) ذيل ص ١٩ قال الزرقاني في شرح المواهب حـ ١ « وأصدقها عشرين بكرة من ماله زيادة على ما دفعه أبو طالب فيكون الكل صداقا » .

الأعطيات ، ولقد قال محمد فصدق ، وعمل فسبق العاملين ، ألم يكن من صفاته بعد أنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، والغمامة الهاطلة ! !

ولم تستقر مواقف بر أبى طالب قبل اصطفاء الله للرسول ، فقد ذكرت المصادر الموثوقة من ذلك وتركت لكن الذى لا يرتاب فيه إنسان أن أبا طالب كان يرى محمدا فى شتى أموره ميمون الغدوات والروحات فتطيب بذلك نفسه ، وكيف لا ، وقد كان محمد من عمه كما قال أبو طالب بمثل منازل الأولاد ؟!

وإذا كانت قريش فى الحجر الأسود تقول بلسان واحد: هذا هو محمد.. هذا هو الأمين قد رضيناه حكما،فى الخلاف الذى كاد يجتثها من القواعد : أيها يذهب بشرف وضع الحجر الأسود فى مكانه بعد بناء الكعبة ؟ ! فيحقن الله الدماء بمحمد « المبارك » — كما كان يدعوه فى طفولته عمه أبو طالب — ويجمعهم بعد فرقة وشتات على كلمة سواء .

تقول قريش هذا ، وتجرى الأحداث على مرضاة الله ، ويكون أبو طالب بابن أخيه جذلان فرحاً ، يرتقب من أقدار الله لمحمد ما بشرت به الرسل ، وتكلم الأبرار ..

ويصطفى الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، ويرسله رحمة للعالمين ، « هادياً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً »(١) .

ويقيم على بن أبى طالب الصلاة لله مع رسول الله ، وكان على يعيش مع محمد وفاء من النبى لعمه الودود .

قال المحب الطبرى بسنده(٢) « كان من نعم الله على على بن أبى طالب ، وما أراد الله به من الخير ، أن قريشا أصابتهم شدة ومجاعة وكان

---

(١) الأحزاب : ٤٥ — ٤٦

(٢) الرياض النضرة فى مناقب العشرة

أبو طالب فى مبدأ أمره مقلا ذا عيال كثير . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه العباس : يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه ، فلنخفف من عياله ، فآخذ من بنيه رجلا وتأخذ رجلا ، فنلغهما عنه ،قال العباس : نعم . فانطلقا حتى أتيا أبا طالب : فقالا له : إننا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه . . فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ما شئتما . . وفى رواية : عقيلا وطالبا . .

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وضمه إليه ، فلم يزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعث الله محمدا رسولا فآمن به على وصدقه ، وأخذ العباس جعفرا » أ هـ

قال ابن إسحاق ثم إن أبا طالب عثر عليهما — على رسول الله وعلى — وهما يصليان ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟! قال : أى عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم — أو كما قال صلى الله عليه وسلم — بعثنى الله رسولا إلى العباد ، وأنت أى عم . . أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه ، وأعاننى عليه — أو كما قال صلى الله عليه وسلم — فقال أبو طالب : أى ابن أخى ، أنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى ، وما كانوا عليه ولكن — والله — لا يخلص إليك بشىء تكرهه ما بقيت !!

وذكروا أنه قال لعلى : يا بنى ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟! فقال : «يا أبت آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقت ماجاء به ، وصليت معه لله ، واتبعته » .

فزعموا أنه قال له : « أما أنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه »(1) أهـ .

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٦

وكان على يوم أسلم قد ناهز الاحتلام كما قال الشيخ الخضرى في « نور اليقين » .

وتساؤلات أبي طالب عن الدين ، لا تنافى ما كان يرتقبه من نبوة ابن أخيه التى طالما تحدث بها وأصغى إلى الحديث عنها ممن يهمهم إذعانه وتصديقه ، وأمارة ذلك أنه قال آخرة الأمر لعلى « أما أنه لم يدلك إلا إلى خير فالزمه » .

كان النبى يستسر بالدعوة إلى الله الواحد المعبود بحق ، قبل ذلك اليوم الذى نادى فيه صلوات الله عليه من فوق الصفا قبائل مكة وعشائرها ؛ وأسمع الله صوت مصطفاه القوم فجاءوا كما سماهم يقولون : هذا هو الصادق . .

وحدثهم بأحلى ما يتحدث به بر كريم : إن الرائد لا يكذب أهله ، أرأيتم لو أخبرتكم أن وراء هذا الجبل خيلا تريد أن تغير عليكم ؛ أكنتم مصدقى ؟!

قالوا : نعم ، وما يكذبك منا أحد .. فقال صلوات الله عليه : « والله إنى لرسول الله إليكم جميعا ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا » .

إن الصادق يتكلم ، ولقد استولى بحقه وصدقه على القلوب ، وأخذ بأعنة العقول ، وحق له ذلك ومثله معه . . فليس وراء ما حدثهم به من الحق شيء ، وهل كان أبدا إلا الصادق الأمين . . وصدق الله العظيم « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » (١)

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس(٢) قال : لما أنزل الله عز وجل « وأنذر عشيرتك الأقربين »(٣) قال « أتى النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) الأنعام (٢) المسند ج ٤ ص ٢٨٦ الحديث ٢٨٠٢ (٣) الشعراء ٢١٤

الصفا ، فصعد عليه ، ثم نادى : يا صباحاه ، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صدقتمونى ؟ قالوا : نعم . قال « فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم! أما دعوتنا إلا لهذا ؟ فأنزل الله عز وجل « تبت يدا أبى لهب وتب » وفى الحديث / ٢٥٤٤ إلى آخر السورة ، ص ١٨٦ قال ابن كثير : رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير ، وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى عن سعيد بن المسيب وأبى مسلمة عن أبى هريرة ، وله طرق أخرى عن أبى هريرة فى مسند أحمد وغيره(١) . .

وقال ابن الأثير بسنده : لما أنزل الله على رسوله « وأنذر عشيرتك الأقربين » اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعا فجلس فى بيته كالمريض ، فأتته عماته يعدنه ، فقال : ما اشتكيت شيئا ، ولكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى ، فقلن له : فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم فانه غير مجيبك ! ! فوالله أكان قولهن ذلك لمراجعته الجافية لابن أخيه فى المشهد الجامع حول الصفا ؟ أم لشراسة يعرفنها فيه ؟ أم أنها شفافية الفطرة التى جاءت بمصداق ما أدركته الأيام ؟!

فدعاهم صلوات الله عليه ، ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين رجلا ، فبادره أبو لهب فقال : هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك ، فتكلم ودع الصبأة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وأنا أحق من أخذك ؛ فحسبك بنو أبيك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب ، فما رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ٣ ص ٣٨ .

فسكت النبى صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم فى المجلس . .

ثم دعاهم ثانية فقال : « الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ثم قال « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن عما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا » (١) فقال أبو طالب : — وهو عم : وأبو لهب عم ولكن شتان بين واصل وجاف — قال : ما أحب إلينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم غير أنى أسرعهم إلى ما تحب ، فامض لما أمرت به فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب » . فقال أبو لهب : « هذه والله السوأة خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم » . وفى رواية أخرى « . . قبل أن تجتمع عليه العرب فان سلمتموه إذا ذللتم وإن منعتموه قتلتم » . فقال أبو طالب « والله لنمنعنه ما بقينا » . أ هـ

وبقى كلاهما على ما وعد ، وكان أبو لهب أبر للشيطان — والعياذ بالله — من بره لابن أخيه صلوات الله عليه ! ! .

ومضى الرسول صلوات الله عليه يبلغ الرسالة ، جهر بها ، ولم يخش فيها بأسا ولا لها هوانا بعد أن أوحى إليه مولاه « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس » . .(٢)

يقول ابن كثير فى تاريخه « والمقصود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استمر يدعو إلى الله ليلا ونهارا سرا وجهارا لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يرده راد ، ولا يصده عن ذلك صاد . . « وذكر أذى قريش له وللذين

---

(١) رواه البخارى (٢) المائدة / ٦٧

معه حتى قال « وكان من أشد الناس عليه عمه أبو لهب عبد العزى ابن عبد المطلب ، وامرأته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ، وخالفه في ذلك عمه أبو طالب ،وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب خلق الله إليه طبعا وكان يحنو عليه ويحسن إليه ، ويدافع عنه ويحامي ويخالف قومه في ذلك ، مع أنه على دينهم وعلى خلتهم ، إلا أن الله تعالى قد امتحن قلبه بحبه حبا طبعيا لا شرعيا »

وهذا موقف من مواقف بر أبي طالب بالرسول ونصره له ممن كان على مثل ما كانوا عليه من جاهلية ، وذياده عن صحابة النبي الذين اتبعوا النور الذي أنزل معه . .

قال ابن كثير « جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا : إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا ، فانهه عنا . فقال أبو طالب : « يا عقيل : انطلق فائتني بمحمد » فانطلق عقيل فاستخرج النبي من بيت صغير فجاء به في الظهيرة في شدة الحر ، فلما أتاهم . قال أبو طالب لابن أخيه : إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم ، فانته عن أذاهم » .

قال ابن كثير بسنده عن عقيل : « فحلق رسول الله ببصره إلى السماء فقال : «ترون هذه الشمس» ؟ قالوا نعم قال « فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منه بشعلة » فقال أبو طالب : « والله ما كذب ابن أخي قط ، فارجعوا » رواه البخاري في التاريخ ورواه البيهقي »(١) وقد ساق الشيخ الألباني(٢) هذا الحديث بسنده فقال ما نصه « والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس مشعلة من نار » ، أورد كلمة أبي طالب ، بعد أن أشار إلى ضعف ونكارة ما روى الطبراني الأوسط والكبير : والله لو وضعوا الشمس في يميني ... إلخ » .(٣)

---

(١) البداية والنهاية حـ ٣ ص ٤٢ (٢) هامش فقه السيرة للشيخ الغزالي . .
(٣) البداية والنهاية حـ ٣ ص ٤٢

وقد ذكره ابن كثير بالنص الأخير(١) رواية للبيهقي ، بعد أن قال أبو طالب له : فأبق على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر مالا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك : فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد بدا لعمه فيه ، وأنه خاذله ومسلمه ، فقال النبي ما روى الطبراني والبيهقي ، واعتمد روايتهما ابن هشام(٢) ووافق رواية البيهقي أن النبي استعبر ، وبكى ، فلما ولى قال لهأبو طالب حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقبل يا ابن أخي » فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا »(٣) .

قال ابن كثير : قال ابن إسحاق : ثم قال أبو طالب :

| | |
|---|---|
| والله لن يصلوا إليك بجمعهم | حتى أوسد في التراب دفينا |
| فاصدع بأمرك ماعليك غضاضة | واجهر وقر بذاك منك عيونا (٤) |
| ودعوتني وعلمت أنك ناصحي | فلقد صدقت وكنت قبل أمينا |
| وعرضت دينا قد عرفت بأنه | من خير أديان البرية دينا |
| لولا الملامة أو حذاري سبة | لوجدتني سمحا بذاك مبينا |

قال ابن كثير ، ثم قال البيهقي : « وذكر ابن إسحاق لأبي طالب في ذلك أشعارا ، وفي ذلك دلالة على أن الله تعالى عصم النبي بعمه مع خلافه إياه في دينه ، وقد كان يعصمه حيث لا يكون عمه بما شاء لا معقب لحكمه». اهـ

وهذه الأبيات الخمسة من شعر أبي طالب تعرب عن أمور :

---

(١) حـ ١ ص ٢٧٨ (٢) نفس المصدر (٣) المصدر السابق

(٤) ذكرت هذا البيت من « معالم التنزيل » فكان « فامض لأمرك . . . » إلخ وقد ذكرت الأبيات هناك بتقديم وتأخير ويسير تغيير .

أو لها: إصرار أبي طالب على الذياد عن ابن أخيه ، والوقوف فى وجه جموعهم حتى الرمق الأخير .

ثانياً : إشاعة تأييد أبي طالب ونصرته فى قلب ابن أخيه فى دعوة قوية أن يجهر برسالته .

ثالثاً: أن الرسول دعا عمه بخاصةودعا الناس بعامة ، وكانالصادق الأمين والناصح الشفوق .

رابعا : أنه عرف أن الدين الذى يدعو إليه محمد هو خير الأديان التى عرفها الناس . .

خامساً: أنه لم يهتدبهذه المعرفة إلى الإيمانوالإذعان للدين الحق رغبة فى أن يبقى بمأمن من تنقص المتنقصين له إن هو آمن وصدق وهو اتباع للآباء لا يجمل بالعقلاء والهدى بكل حال . . هدى الله . .

ولقد أورد صاحب « معالم التنزيل » هذه الأبيات بعد مقدمة قال فيها :

« الكفر أربعة أنواع : —كفر الإنكار ، وكفر الجحود ، وكفر النفاق ، وكفر العناد ، . .

أما كفر الإنكار : فهو ألا يعرف الله بالقلب ، ولا يعترف باللسان.

وأما كفر الجحود : فهو أن يعرف الله بقلبهولكن لا يقر بلسانه ككفر إبليس ، وكفر اليهود بمحمد صلى الله عليه وسلم من هذا القبيل . قال تعالى « . . فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » أى جحدوا .

وأما كفر النفاق : فهو أن يقر باللسان ولا يعتقد بالقلب .

وأما كفر العناد : فهو أن يعرف الله بقلبه ، ويعترف بلسانه ، ولكن لا يدين به ولا يكون منقادا مطيعا ككفر أبي طالب فانه قال فى شعره » وذكر الأبيات .

ثم قال : « وجميع الأنواع الأربعة سواء فى أن الله تعالى لايغفر لأصحابها إذا ماتوا عليها » اهـ

وأمعن النبى فى دعوته ، وأمعن الشرك فى أذاه وغشمريته ، وقناة أبى طالب على صلابتها لم تلن فى نصرته للنبى والذين آمنو معه .

قال الإمام أحمد بسنده عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أوذيت فى الله ، وما يؤذى أحد ، وأخفت فى الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال ما يأكله ذو كبد إلا ما يوارى إبط بلال » . وأخرجه الترمذى وابن ماجة من حديث حماد بن سلمة به وقال الترمذى حسن صحيح »

وقال محمد بن إسحاق « ثم إن قريشا — حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإسلامه وإجماعه فراقهم فى ذلك وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد ، أنهد فتى فى قريش وأجمله فقالوا له يا أبا طالب ، خذه فلك عقله (١) ونصره واتخذه ولدا ، فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فانما هو رجل برجل ، قال : « والله لبئس ما تسومونى (٢) ، أتعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ، هذا والله ما لا يكون أبدا » فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : والله يا أبا طالب قد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا .

فقال أبو طالب للمطعم : « والله ما أنصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ، ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدا لك » .

---

(١) فلك ديته التى تدفعها العاقلة

(٢) تسومونى : تكلفونى

فحميت الحرب ، وتنابذ القوم(١) وبادى بعضهم بعضا ، فقال أبو طالب — عند ذلك — يعرض بالمطعم ، ويعم من خذله من عبد مناف ، ومن عاداه من قبائل قريش ويذكر ما سألوه ، وما تباعد من أمرهم :

ألا قل لعمرو والوليـــد ومطعم ... إلا ليت حظى من حياطتكم بكر(٢)
من الخـــور حبحاب كثير رغاؤه ... يرش على الساقين من بوله قطر(٣)
تخلف خلف الورد ليس بلاحق ... إذا ماعلا الفيفاء قبل له وبر(٤)
أرى أخوينـــا من أبينا وأمنا ... إذا سئلا قالا : إلى غيرنا الأمر
بلى لهـــما أمر ، ولكن تحرجما ... كما حرجمت من رأس ذى علق صخر(٥)
أخص خصوصا عبد شمس ونوفلا ... هما نبذانا مثلما ينبذ الجمـــر
هما أغمزا للقـــوم فى أخويهما ... فقد أصبحا منهم أكفهم صفر(٦)
هما أشركا فى المجد من لا أباله ... من الناس إلا أن يرس له ذكر(٧)
وتيم ومخـــزوم وزهرة منهم ... وكانوا لنا مولى إذا بغى النصر
فوالله لا تنفك منـــا عداوة ... ولا منهم ما كان من نسلنا شغر(٨)
فقـــد سفهت أحلامهم وعقولهم ... وكانوا كجفر بئس ما صنعت جفر(٩)

---

(١) تركوا ما كان بينهم من عهود
(٢) البكر : الفتى من الإبل
(٣) الخور : ج أخور : الضعيف ، حبحاب بحاءين : القصير ، وبجيمين : الكثير الكلام فاستعاره للكثير الرغاء .
(٤) الفيفاء : الأرض القفر الوبر : دويبة على قدر الهرة .
(٥) تحرجما : انحدرا ذو علق : جبل فى ديار بنى أسد .
(٦) أغمزا : طعنا . الصفر : الخالى
(٧) رسست الحديث : حدثت به فى خفاء أى إلا أن يذكر ذكرا خفيفا
(٨) شعر ز حد ، يقال ما بالدار شغر ولا أحد
(٩) قال أبو عبيدة : الجفر ولد المعزى إذا بلغ أربعة أشهر « من لسان العرب » والمفردات قبلها من تعليق الشيخ محيى الدين .

وقد ترك منها ابن هشام بيتين فيهما إقذاع .. كما قال[1]

والقصيدة غضبة مضرية — كما قيل — على عمرو بن هشام — أبي جهل — والوليد بن المغيرة ، والمطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصى وآخرين — سماهم ابن كثير في ص ٤٧ ج ٣ ، وأبو طالب ينعى حظه من رعاية قومه له ، ويراه دون غضب الفتى من الابل الذى لا يعود على قومه منه فى السفر غير رغائه الكثير ... وأنهم يزعمون أن ليس لهم من الأمر شيء ، وهم فى الحق لهم شأن من الأمر لكنهم أسرفوا فى الخصام ، وهانوا على الأقوام فكانوا أشبه شيء بالحجر الذى تدلى من جبل ذى علق فى ديار بني أسد ..

وخص بالسلام عبد شمس ونوفل الذين كان يرجو نصرهم ودفاعهم ، أو — فى أقل القليل — عدم أذاهم لمحمد بن عبد الله صلوات الله عليه وصحبه ، فان هؤلاء نبذوا أبا طالب وجفوه — وما هو بسبيله من بر وصلة وكأنه نار تتقى وتحذر ..

وهم قد صاروا من صلة الرحم صفر اليدين بعد أن طعنوا أبا طالب وعشيرته ، وغمزوهم عند قريش ، فكانوا بذلك أعوان القوم على الايغال فى القطيعة والعدوان — وهم رحم أهل مجد فى الأصل .. قد عقوا أهلهم وأتاحوا فرصة لمن لا شأن لهم ومن لا يؤبه بهم إلا أن يذكرهم وتفضل بما لم يكونوا أهله .

ولقد كنا أعوانهم حتى ينتصروا فى شدائد ، يلتفت فيها المظلوم إلى السيد المعين ..

ويقسم أبو طالب بالله أن العداوة ستبقى وتقوى بينه وبين هؤلاء حتى آخر العمر ، وما بقى من المحبين فرد واحد .

---

(١) السيرة جـ ١ ص ٢١٨

وقد رماهم بخفة العقول وطيش الألباب وضرب لهم مثل ابن المعزى في ذلك ، فالمعز كما عرف الناس من تصرفها تتعرض للمخاطر وكأنها تتحدى ! !

إن عطاء الأبيات أعمق وأدل وأصدق على خصام عبد المطلب لهؤلاء الجافين ، ووفائه لمحمد وصحبه ، وما تكون المعاني التي قدمتها من عطاء هذه الأبيات إلا القطرة من البحر الكبير .

ولقد تسأل : هل نهنهت هذه المواقف الصلاب من كيد قريش وتآمرها وتذامرها على محمد ورسالته والذين استجابوا لها ؟ ! وواقع القوم جواب :

هذا هو الشر يفرخ ، والشيطان يوحى أبدا إلى أوليائه ليجادلوا بالباطل وليهددوا ويتوعدوا ويعتدوا ويقتلوا ، ويجربوا كل أسلوب علهم يردون محمدا عما أصر على أدائه من أمر ربه ، وهل يعود اللبن إلى الضرع ؟!

ولقد وثبت قريش على الذين آمنوا منها بمحمد ، وأوسعوهم أذى ، وعصم الله مصطفاه بعمه أبي طالب وراح يغرى بني هاشم وبني المطلب على أن يقفوا من محمد والذب عنه والقيام دونه كما يصنع ، فأثار فيهم نخوتهم ومروءتهم ، واستجاب القوم له إلا أبا لهب ، ولا عجب ، فما يجنى من الشوك العنب .. ! ! فقال أبو طالب يمدح القوم ، ويذكر فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، ومكانه منهم ، رغبة في أن يدوم منهم ذلك القيام(١) .

| | |
|---|---|
| إذا اجتمعت يوما قريش لمفخر | فعبد مناف سرها وصميمها(٢) |
| فان حصلت أشراف عبد منافها | ففي هاشم أشرافها وقديمها |
| وإن فخرت يوما فان محمدا | هو المصطفى من سرها وكريمها |

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨١

(٢) سرها وصميمها خالصها وكريمها .. فهم الخيار والصفوة .

تداعت قريش غثها وسمينها | علينا، فلم تظفر وطاشت حلومها(١)
وكنا قديما لا نقر ظلامة | إذا ما ثنوا صعر الخدود نقيمها(٢)
ونحمى حماها كل يوم كريهة | ونضرب عن أحجارها من يرومها(٣)
بنا انتعش العود الذواء وإنما | بأكنافنا تنذى وتنمى أرومها(٤)

والأبيات قوية المبنى، كريمة المعنى؛ يزيد فى جودتها وضوحها ودلالتها على معرفة بالنفس وصدق فى الإدراك والحس، ويقين بالذى استهدفته من جلاء فضل رسول الله صلوات الله عليه، ذلك الذى يمنعه ويذب عنه، انطلاقا من سجية فيهم موروثة غير محدثة هى نصرة المظلوم، ومظاهرة الحق الذى طاشت حلوم قريش فى الخلاف عن أمره، وطالما حمينا حماها، ورمينا فى الكريهة من رماها؛ وكنا المناخ الصالح الذى انتعش فيه عودها بعد يبس، وعز أصلها واستطال كما ينمو النبات ويزكو الغرس.

ووفاء أبى طالب لابن أخيه عاطفة برة تنمو وتتأصل، وتتسع فيستظل بظلها كل مظلوم يفزع إليها، وإذا كان الشاعر القديم قد قال.. « والشىء يذكر عنده الضد » فان أبا لهب مثل فى الجفاء يذكر فى مقابلة أبى طالب الوفى الحفى لابن أخيه وصحبه.

---

(١) تداعت: دعا بعضهم بعضا ... الغث فى الأصل: اللحم الضعيف .. استعير هنا لمن لا أصل لهم هنالك.. ويقابله السمين أصلا واستعارة لأعداد قريش كلها. طاشت حلومها: ذهبت عقولها.

(٢) ثنوا: عطفوا، صعر خده: أماله إلى جهة، صنع المتكبر، قال تعالى: « ولا تصعر خدك للناس »

(٣) يضرب عن أحجارها: يدفع عن حوزتهم ويمنعهم.

(٤) انتعش: حيى وظهرت فيه النضرة، والعود الذواء: العابس الذى جف فيه الماء .. الاكناف: النواحى. الأرومة: الأصل.

ولما استمر أذى المشركين للمسلمين استجار أبو مسلمة بن عبد الأسد المخزومي بأبي طالب ، فمشى رجال من بني مخزوم إلى أبي طالب فقالوا : منعت عنا ابن أخيك محمداً ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ !

قال : إنه استجار بي ، وهو ابن أختي ، وإذا لم أمنع ابن أختي ، لم أمنع ابن أخي !

فقام أبو لهب ، فقال : يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهن ، أو لنقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد !!!

ويا عجبا ، إنها لصحوة ضمير لم تعرف فيه منذ بعثة النبي صلوات الله عليه وحتى اليوم ، ومع هذا فإنها صحوة لم تلبث أن عادت — مسرعة — أدراجها . . وإليك بقية الموقف .. قال بنو مخزوم رداً على مقالة أبي لهب : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة ، فقد كان لهم وليا وناصراً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إبقاء على انحيازه لهم ، والتقط أبو طالب الخيط الذي مده أبو لهب ، وأطمعه ما سمع من كلامه ، ورجا أن يقوم معه في نصرته لابن أخيه فقال أبو طالب :

إن امرءا أبو عتيبة عمه لفي روضة من أن يسام المظالما(١)
أقول له ، وأين منه نصيحتي أبا معتب : ثبت سوادك قائماً(٢)
ولا تقبلن الدهر ما عشت خطة تسب بها إما هبطت المواسما(٣)

---

(١) نسام : نكلف ، المظالم جمع مظلمة ، أي من يكن له أبا لهب يعتز ويفلح ، يشير إلى الرسول صلوات الله عليه .

(٢) اشتق أبا معتب من أبي عتبة كنية أبي لهب — ، السواد : الشخص ، أي كثر مؤازرتك قومك .

(٣) المواسم : اجتماعاتهم في أيام الحج أو في أسواقهم المشهورة .

وول سبيل العجز غيرك منهمو فانك لم تخلق على العجز لازما

وحارب فان الحرب نصف ولن ترى
أخا الحرب يعطى الخسف حتى يسالما(١)

وكيف، ولم يجنوا عليك عظيمة ولم يخذلوك غانما أو مغارما

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا وتيما ومخزوما عقوقا ومأثما

بتفريقهم من بعد ود وألفة جماعتنا كيما ينالوا المحارما

كذبتم وبيت الله نبزى محمدا ولما تروا يوما لدى الشعب قائما(٢)

إن أبا طالب فى هذه النبضة من نبضات قلبه يعرب عن إنسانية تأبى الضيم وتبغض الظلم، وتجير من استجار وتخاصم فى ذلك جهرة دون استتار، وتعترف بالفضل فى أول قصة تبدو ظواهره، وإن جاء من رجل كثيرة مناكره، كأبى لهب، ويحاول جاهدا أن يستثمر هذه الظاهرة لمصلحة الحق الذى وصل من أبعاده عند نصرة ابن أخيه والمسلمين، وهو فى هذا الجو من إجارة أبى مسلمة، ومخالفة قومه فى تمكينهم منه يخلص إلى مسألة المسائل، وأصل ذلك كله، وهى محمد ورسالته، وقيامه دونهما، فيقسم لهم ببيت الله، ولو قال: كذبتم ورب البيت — لاستقام الوزن وصح القسم — أقسم للقوم أنه لن يسلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقوى على منعه، وأنهم سيرون دائما القائمين دون محمد صلوات الله عليه.

ويقول ابن هشام، أنه ترك وراء الذى أثبتناه من شعر أبى طالب بيتاً لعله وجد تركه أحكم وأكرم.

---

(١) الحرب نصف: أى سبب للانتصاف من الأعداء — الخسف: الذل، والمعنى أن من وطن نفسه على الحرب لم يخضع لظالم، ولم يذل إلا أن يسالمه الناس فلا يعتدى عليهم، ص ٢٩٣ حـ ١ سيرة ابن هشام.

(٢) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٢٩٢ — ٢٩٣

## المسلمون فى الحبشة :

وهذا رسول الله عن كثب من عمه يجالدان الشر ، ويجد النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك مسلاة وأنسا من وحشة وحنين لأولئك النفر الكريم من أهله وصحبه الذين فروا بدينهم إلى الحبشة بتوجيه النبى صلوات الله عليه فقد قال لهم : «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه»(١) .

ومضى عن مكة بلد الله الحرام ومهد الدعوة ، ومبعث محمد صلوات الله عليه أكرم وفد ، ومحمد يتابع بقلبه خطواتهم ، وتهفو نفسه إلى أخبارهم وما أصابوا فى المنزل الجديد من ظروف السعة والراحة .

ولم تكتف قريش بما ألجأت إليه عباد الله من هجر خير دار وأعز جوار ، لكنها بعثت وفودها إلى النجاشى تكيد لهم عنده ، وتثير حفيظته عليهم ، صنعت ذلك مرتين — كما قال ابن كثير(٢) ثم قال راويا عن ابن إسحق بسنده : « إن أبا طالب لما رأى ذلك من صنيع قريش كتب إلى النجاشى رضى الله عنه وأرضاه أبياتاً يحضه فيها على العدل والإحسان إلى من نزل عنده من قومه » .

| | |
|---|---|
| ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفر | وعمرو وأعداء العدو الأقارب |
| وما نال أفعال النجاشى جعفرا | وأصحابه ، أو عـاق ذلك شاغب |
| وتعلم — أبيت اللعن — أنك ماجد | كريم فلا يشقى لديك المجانب (٣) |

---

(١) البداية والنهاية حـ ٣ ص ٦١ (٢) المصدر السابق حـ ١ ص ٧٦

(٣) أبيت اللعن : دعوة جاهلية كانوا يحيون بها ملوكهم ويراد بها : أبيت أن تعمل شيئاً تستوجب به لعن الناس .

وتعلم أن الله زادك بسطة وأسباب خير كلها بك لازب (١).

وقد زاد ابن هشام فى السيرة البيت التالى :

وإنك فيض ذو سجال غزيرة ينال الأعادى نفعها والأقارب (٢).

وأبو طالب فى هذه الأبيات يستجيش مروءة النجاشى « الملك الذى لا يظلم عنده أحد » كما وصفه الصادق المصدوق صلوات الله عليه ، ويحضه على الإحسان إلى أولئك الذين آثروه بعد توجيه نبيهم ، وفزعوا إلى حماه ، وأن لا يسمع فيهم وشاية واش ، وأن لا يعوقه عن نصفتهم إشغاب مشاغب. فمن كان مثله كريما ماجدا لا يخفر جواره ولا يهون من أوته داره ولاذ بعد الله بحماه .

وإنه يفعل من الخير ما يفعل ، ويبذل ما يبذل شكراً لله على الملك الذى وطد له أركانه وعلى الخير الذى يحوطه من شتى نواحيه لا يجاوزه ولا يعدوه. فلا عجب أن كان البحر جوداً والسحاب عطاء ، إلى المدى الذى يتسع للأباعد والأقارب وينهل منه العدو والصاحب » .

والأبيات وإن لم تذكر محمداً صلوات الله عليه صراحة ، قد ذكرته وصحبه تلميحا وإشارة ، أليس يقول أبو طالب فى الشطر الثانى من البيت الأول « وأعداء العدو الأقارب » ؟ !

فهو يعتبر صحب محمد أقاربه ؛ ويعتبر قومه — الذين هو على مثل دينهم — عدوا ، وذلك إعزاز بليغ من أبى طالب لرسول الله ولرسالته معاً .

---

(١) بسطة : زيادة فى الملك والجاه والسعة — لازب : لازم لاحق ( البداية والنهاية حـ ٣ ص ٧٧ )

(٢) فيض : كريم يفيض على غيره بخيره .. السجال : ج سجل : الدلو الممتلئة والمراد هنا العظيمة .

فإن حب الذين يؤمنون بنبوته ويذعنون لرسالته حب أولوى لمحمد صلوات الله وسلامه عليه .

واطردت الأيام كأن بعضها يسوق بعضاً ، وتتابعت الأحداث فى جبهة التوحيد ، إمعانا فى الدعوة وصبراً على الأذى واقتداء للعقيدة بالهجرة بها إلى الحبشة والرضا بكل ما يواجه فى ذلك من تضحيات ومكايد يرى المسلمون أولاها مظهر إيمان ، ويحبط الله أخراها ، ويردها على من دبرها وأمضاها أسرع من منحدر نازل . « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » .
وفى جبهة الشرك فى الجهة المقابلة ، تواصى على التشبث بالباطل واطراح شتى الوشائج الحانية والروابط الإنسانية فى أذى النبى وصحبه ، والانتقال بأوغار الصدور عبر البحار إلى الحبشة تآمرا على المسلمين الذين أووا إليها ، فلما بدل الله المسلمين فى جوار النجاشى أهلا بأهل وإخوانا بإخوان وافتضح باطل قريش ، واتضح مكرهم لعباد الله ، راح المشركون يجربون أسلوباً أشد وأوجع جاهلين أن يد الله فوق أيديهم ..

**فى شعب أبى طالب :**

فى هذه الأجواء أسلم عمر بن الخطاب بعد أن أسلم أسد الله حمزة بن عبد المطلب ، فكانوا من جند الله لرسول الله وصحبه ،وضاعف ذلك من شراسة المشركين فتداعوا وتآمروا فيما بينهم وفكروا وقدروا ثم قرروا أن يكتبوا وثيقة يجمعون فيها على قطيعة محمد وصحبه وإلجائهم إلى شعب أبى طالب ، وعما قليل ينفد زادهم ثم يموتون هنالك جوعا ، وينتهى الأمر . . .

قال ابن إسحاق(١) : فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم قد نزلوا بلداً أصابوا به أمنا وقراراً ، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب

---

(١) السيرة ح ١ ص ٣٧١

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل ، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على أن لا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ؛ فلما اجتمعوا لذلك كتبوا فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم . . . » .

« فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب ، فدخلوا معه فى شعبه ، فاجتمعوا إليه ، وخرج من بنى هاشم أبو لهب إلى قريش فظاهرهم . . . » .

« فلما اجتمعت على ذلك قريش وصنعوا فيه الذى صنعوا ، قال أبو طالب فى مقاطعة قريش بنى هاشم (١) :

ألا أبلغا عنى على ذات بيننا
لؤيا وخصا من لؤى بنى كعب

ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا
نبياً كموسى خط فى أول الكتب

وأن عليه فى العباد محبة
ولا ضير ممن خصه الله بالحب (٢)

وأن الذى ألصقتم من كتابكم
لكم كائن نحسا كراغية الثقب (٣)

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٧٢

(٢) فى ذيل الصحيفة المذكورة : ولا خير – أصله ولا خيرا . . . موجود » فحذف الخبر وخفف الاسم من التنوين .

(٣) الراغية من الرغاء وهو صوت الإبل ، الثقب : ولد الناقة أراد به ولد ناقة صالح عليه السلام .

أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى
ويصبح من لم يجن ذنباً كذى الذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة ، وتقطعوا
أواصرنا بعد المودة والقرب (١)
وتستجلبوا حربا عواناً ، وربما
أمر على من ذاقه حلب الحرب (٢)
فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا
لعزاء من عض الزمان ولا كرب (٣)
ولما تبن منا ومنكم سوالف
وأيد أثرت بالقساسية الشهب (٤)
بمعترك ضيق ترى كسر القنا
به ، والنسور الطخم يعكفن كالشرب (٥)
كأن مجال الخيل فى حجراته
ومعمعة الأبطال معركة الحرب (٦)
أليس أبونا هاشم شد أزره
وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
ولسنا نمل الحرب حتى تملنا
ولا نشتكى ما قد ينوب من النكب
ولكننا أهل الحفائظ والنهى
إذا طار أرواح الكماة من الرعب (٧)

---

(١) الأواصر : جمع آصرة وهى أسباب المودة والقرابة .
(٢) الحرب العوان التى قوتل فيها مرة بعد مرة ـ والبكر ماقوتل فيها أول مرة
(٣) العزاء : الشديدة ،عض الزمان : صروفه الصعبة .
(٤) تبن : تنفصل. السوالف ج سالفة : صفحة العنق ـ أثرت : قطعت ـ القساسية : السيوف المنسوبة إلى معدن بأرمينية .
(٥) الطخم : السود (٦) مجال : إجالة. حجراتها : نواحيها
(٧) الحفائظ : ج حفيظة : الحمية .

والقصيدة جاوزت المدى من دوافعها ، وألحت باللائمة على قريش وبخاصة بنى كعب بن لؤى بما صنعوا بالنبى صلوات الله عليه ذلك الذى بشر بنبوته كعب بن لؤى فى خطبه كما ذكرنا ذلك قبلا . .

وأبو طالب يعلن ما يعلمه من نبوة النبى التى وعتها الكتب بعد نبوة موسى عليه السلام ،وأن الله قد جعل فى كل قلب محبة ، وهى عطاء خص الله بها نبيه دون سواه ، وذكر الصحيفة الظالمة وأنبأ أنها ستكون نحسا عليهم ودماراً كناقة صالح التى عقرها القوم فأصبحوا فى ديارهم جاثمين هلكى على الركب .

وراح أبو طالب ينذر قومه بالنهاية السوآى ، ويدعوهم إلى سرعة المتاب قبل فجأة الانقلاب ، فإذا أخذ الله الطغاة كانت عاقبة من لم يذنب برضاه على الظالمين كعاقبة الظالمين « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » . . .

وهو يذكرهم بالقرابة الواصلة والوشائج التى توجب الإحسان ، ويدعوهم إلى أن لا يقبلوا معها وشاية الواشين ، ولا دسائس المفسدين ، وأن لا يستجيبوا لدواعى القتال ولا يسرعوا إلى الحرب بعد الحرب ، فكم تدور الدوائر على المقاتلين طاغين باغين ! !

وإنه ليقسم بالله رب البيت أنهم سيكونون دون محمد صلوات الله عليه ، لا يسلمونه لشديدة من الشدائد التى يأتى بها الزمان ، فطبيعة الحياة أن يختلط فيها الصفو والكدر ؛ واليسر والعسر .

إلا أن تتناثر من الفريقين صفحات الأعناق ، وتتقطع الأيدى بالسيوف الباترة المصنوعة من معدن القساس الذى اشتهرت به أرمينية .

وقد أشبع هذا القتال وصفا ، بعد الذى سلف وهو يصف المعركة ،وما ملأ الميدان من حطام القنا ،ومن نسور جوارح تجد فرصتها فى جثث القتلى التى

تجمع على نهشها ، إنها معركة حسمها من ميادين القتال ، مجرد إجالة الخيل فى نواحيها وأصوات الأبطال المشمرين فيها .

وإنهم لبنو المعارك منذ أوصاهم أبوهم هاشم بالخفة إليها ، فهم يألفونها ولا يملونها حتى نثأر من عدونا أو تأتى علينا مقبلين غير مدبرين دون أن تهزنا الخطوب ، أو نشتكى منها ما ينوب . وسنكون على العهد بنا غضاباً للحق يظلم ؛ تحفزنا إلى ذلك عقول واعية ، لا تخشى المكاره التى تواجه المقاتلين .. وهل الحرب إلا طعن وضرب وأشلاء ودماء ! ! !

**نقض الصحيفة الظالمة :**

بقى محمد وصحبه وبنو هاشم وبنو المطلب — كما قال ابن إسحاق(١) فى منزلهم الذى تعاقدت فيه قريش عليهم فى الصحيفة التى كتبوها ؛ وبقى القوم فى الجهد والبلاء ثلاث سنين ، وقريش مع ذلك تفكر كيف تقتل محمداً صلوات الله عليه .

قال ابن إسحاق : فكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد به مكرا واغتيالا ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بنى عمه فاضطجعوا على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى إلى فراشهم فينام عليه »(١) .

وأبو طالب يرى كل ذلك الكيد والعنت ، ويذهب منه بأوفى حام ، ويمنى بأكثر السهام ، وهو مع ذلك يذكر من هاجروا إلى الحبشة ، ويعنيه أمرهم ويشعر بما تفعل بهم على بعد الدار أنباء ما أحكمته قريش من حصار للنبى وصحبه وقومه فى الشعب ، وهو يناشد المشركين أن يعودوا من سفاهتهم إلى رشد ! !

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٨٤

وصنع الله لنبيه ما يصنعه أبدا لأوليائه ورسله « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »(١) .

وحين يعتكر الليل ، ويبلغ كيد الإنسان مداه تتجلى رحمة الله فيشرق الصباح وتغمر الناس سكينة وارتياح. لقد سلط الله الأرضة فلحست كل ما كان فى الصحيفة من عهد وميثاق كما قال الزهرى من طريق موسى ابن عقبة(٢) .

وأطلع الله رسوله على ما صنع بصحيفة القوم ، وتحدث بذلك محمد إلى عمه وقومه ، فقال أبو طالب واثقا مما سمع : لا والثواقب — وهذا قسمه — ما كذبنى ابن أخى !! ومضى إلى حيث كان يجتمع المشركون فى المسجد ومعه يومئذ نفر من عصبته ، فنظروا إليهم ظانين أن القوم قد أبرمهم الحصار ، ورأوا أن يسلموا محمدا إليهم طلبا للسلامة وإيثارا للعافية من محنة أجهدتهم.. وياللحماقة !!

لقد أفزعتهم الحقيقة التى جاءهم بها أبو طالب وصحبه ، لقد أخبرهم بما أنبأه به الصادق المصدوق محمد صلوات الله عليه ، ودعاهم أن يقوموا إليها فإن كان الأمر كما قال محمد فلينتهوا عن هذه القطيعة الآثمة وإن يك غير ذلك أجابهم إلى ما طلبوه من إسلام ابن أخيه لهم !! وفى دهشة مما سمعوا أجابوا أبا طالب وأتوا إلى صحيفتهم فإذا هى كما قال محمد صلوات الله عليه فأسقط فى أيديهم ومضوا — كما يتحدث ابن كثير فى إحدى رواياته — إلى مزيد من الشر لولا أن سارع عقلاؤهم فصنعوا فى نقض الصحيفة ما صنعوا » .

وكان أبو طالب فى الشعب مع الرسول وصحبه وقومه يناشد قريشا أن تكف عن بغيها وكانت مناشدته تأخذ أساليب وصورا كان منها قصيدته اللامية

---

(١) الآية ٥١ من سورة غافر

(٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٨٥

التى سنأتى عليها عما قليل ، يقول ابن كثير (١) « والأشبه أن أبا طالب إنما قال قصيدته اللامية بعد دخولهم الشعب » وكان ابن كثير (٢) قد ساق القصيدة قبلا فقال : قال ابن إسحق(٣) ولما خشى أبو طالب(٤) دهم العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته التى تعوذ فيها بحرم مكة ، وبمكانه منها وتودد فيها أشراف قومه وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم فى شعره أنه غير مسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تاركه لشىء أبداً حتى يهلك دونه فقال :

ولما رأيت القوم لاذود فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل (٥)
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا يوما علينا أظنة ... يعضون غيظا خلفنا بالأنامل (٦)
صبرت لهم نفسى بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول (٧)
وأحضرت عند البيت رهطى وإخوتى ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل (٨)
قياما معا مستقبلين رتاجه ... لدى حيث يقضى حلفه كل نافل (٩)
وحتى ينيخ الأشعرون ركابهم ... بمفضى السيول من أساف ونائل (١٠)

---

(١) المصدر السابق
(٢) نفس المصدر حـ ٣
(٣) السيرة حـ ١ ص ٢٨٦ .
(٤) أو دهماء — رواية ابن كثير — العامة
(٥) الوسائل : القرابات : وسل فلان إلى فلان تقرب إليه
(٦) أظنة : ج ظنين : المتهم
(٧) سمراء سمحة : القناة اللينة — العضب : القاطع — المقاول : الملوك والسادات الذين يخلفونهم عند حمير .
(٨) الوصائل : ثياب حمر فيها خطوط كان يكسى بها البيت
(٩) الرتاج : باب الكعبة النافل : المتبرىء يقال نفل من كذا : تبرأ منه
(١٠) صنمان كانوا يذبحون عندهما عند زمزم .

موسمة الأعضاء أو قصراتها ... مخيمة بين السديس وبازل (١)
ترى الودع فيها والرخام وزينة ... بأعناقها معقودة .. كالعثاكل (٢)
أعوذ برب الناس من كل طاعن ... علينا بسوء أو ملح بباطل
ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة ... ويلحق بنا فى الدين مالم نحاول (٣)
وثور ومن أرسى ثبيرا مكانه ... وراق لبرق فى حراء ونازل (٤)
وبالبيت-حق البيت-من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل (٥)
وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة ... على قدميه حافيا غير ناعل
وأشواط بين المروتين إلى الصفا ... وما فيهما من صورة وتماثل (٦)
ومن حج بيت الله من كل راكب ... ومن كل ذى نذر، ومن كل راجل
وبالمشعر الأقصى إذا عمدوا له ... إلال إلى مفضى الشراج القوابل (٧)
وتوقافهم فوق الجبال عشية ... يقيمون بالأيدى صدور الرواحل (٨)

---

(١) الموسمة : المعلمة من السمة — القصرات : أصول الأعناق مخيمة : مذللة، السديس من الأبل ما بلغ الثامنة ، والبازل التاسعة

(٢) الودع الخرز فى أعناقها — العثاكل : الأغصان ينبت فيها الشجر

(٣) الكاشح : البغيض المعرض

(٤) ثور وثبير وحراء : جبال فى مكة

(٥) اكتنفوه : أحاطوا به .

(٦) أشواط السعى بين المروتين — التماثل : التماثيل أسقط ياءها تخفيفا وضرورة للشعر : الصور

(٧) إلال كـكتاب وركاب : جبل بعرفات وهو الأصح فليس بعرف — نفسه، ولا هو البيت كما قال ياقوت وغيره — الشراج مسايل الماء. فى الحرة القوابل : التى تقابل بعضها بعضا

(٨) توقافهم : وقوفهم

وليلة جمع والمنازل من منى ... هل فوقها من حرمة ومنازل

وجمع إذا ما المقربات أجزنه ... سراعا، كما يخرجن من وقع وابل (١)

وبالجمرة الكبرى إذا صمدوا لها ... يؤمون قذفا رأسها بالجنادل (٢)

وكندة إذ هم بالحصاب عشية ... تجيز بهم حجاج بكر بن وائل (٣)

حليفان شدا عقد ما احتلفا له ... وردا عليه عاطفات الوسائل

وحطهم سمر الرماح وسرحه ... وشبرقة وخد النعام الجوافل (٤)

فهل بعد هذا من معاذ لعائذ ... وهل من معيذ يتقي الله، عادل

يطاع بنا أمر العدا ود أننا ... يسد بنا أبواب ترك وكابل (٥)

كذبتم وبيت الله نترك مكة ... ونظعن إلا أمركم في بلابل (٦)

كذبتم وبيت الله نبزى محمدا ... ولما نطاعن دونه ونناضل (٧)

ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل (٨)

وينهض قوم بالحديد إليكم ... نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل (٩)

وحتى ترى ذا الضغن يركب روعه ... من الظعن فعل الأنكب المتحامل (١٠)

وإنا لعمرو الله إن جد ما أرى ... لتلتبسا أسيافنا بالأماثل

---

(١) المقربات : الخيل تربط قريبا من البيوت لكرامتها الوابل : المطر الشديد

(٢) صمدوا لها : قصدوها

(٣) مكان رمى الجمرات نقل من المصدر من الحصباء تجيز بهم : تحرسهم وتجاوزهم

(٤) الحطم : الكسر . سمر الرماح : الرماح السمراء أو المأخوذة من شجر السمر السرح : شجر . الشبرق : نبات . الوخد : سريع السير ، الحوافل. الذاهبة في سرعة

(٥) ترك وكابل جيلان من العجم (٦) البلابل : الوساوس والهموم

(٧) نبزى نسلب ونغلبه عليه (٨) الحلائل : الزوجات

(٨) الروايا الإبل حاملة الماء. الصلاصل : الصوت يسمع من احتكاك المزادات بالإبل في سيرها (٩) الضغن — العداوة . ركب روعه : إذا خر لوجهه صريعا . الأنكب : الذي يمشي على شق . .

بكفى فتى مثل الشهاب سميدع   أخى ثقة حامى الحقيقة باسل(١)
شهورا وأياما وحولا محرما   علينا ، وتأتى حجة بعد قابل (٢)
وما ترك قوم — لا أبا لك — سيدا   يحوط الذمار غير ذرب مواكل (٣)
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ثمال اليتامى عصمة للأرامل(٤)
يلوذ به الهلاك من آل هاشم   فهم عنده فى رحمة وفواضل
لعمرى لقد أجرى أسيد وبكره   إلى بغضنا ، وجزآنا لآكل
وعثمان لم يربع علينا ، وقنفد   ولكن أطاعا أمرتلك القبائل
أطاعا أبيا وابن عبد يغوثهم   ولم يرقبا فينا مقالة قائل
كما قد لقينا من سبيع ونوفل   وكل تولى معرضا لم يجامل(٥)
فان يلفيا أو يمكن الله منهما   نكل لهما صاعا بصاع المكايل(٦)
وذاك أبو عمرو أبى غير بغضنا   ليطعننا فى أهل شاء وجامل(٧)
يناجى بنا فى كل ممسى ومصبح   فناج أبا عمرو بنا ثم خاتل(٨)
ويؤلى لنا بالله ما أن يغشنا   بلى قد تراه جهرة غير خائل(٩)
أضاق عليه بغضنا كل تلعة   من الأرض بين أخشب فمجادل
وسائل أبا الوليد ، ماذا حبوتنا   بسعيك فينا معرضا كالمخاتل
وكنت امرءا ممن يعاش برأيه   ورحمته فينا ولست بجاهل

---

(١) السميدع السيد ، الباسل ، الشجاع   (٢) حولا محرما — كاملا ..
(٣) الزمار — ما يلزمك حمايته . . ذرب — فاسد .. مواكل — يتكل على غيره.
(٤) ثمال اليتامى — يشملهم ويقوم بأمرهم ..
(٥) لم يربع : لم يعطف .. قنفد : من الأعلام
(٦) يلفيا : يوجدا .. نكل : من الكيل .
(٧) الجامل : اسم لجماعة الجمال وعلى وزانها فى جماعة البقر .
(٨) خاتل : من الختل وهو الغدر والخداع .
(٩) يؤلى : يحلف ويقسم .. التلعة : المشرف المرتفع من الأرض وكذلك مسيل الماء من جوف الوادى إلى وسطه — الأخشب بضم الشين : الأخشبان بمكة مضاف إليها أشباههما وبالفتح الثنية لشهرة الأخشبين — المجادل : الحصون والقصور بأعلى الجبال ..

فعتبة لا تسمع بنا قول كاشح ... حسود كذوب مبغض ذى دغاول (١)
ومر أبو سفيان عنى معرضاً ... كما مر قيل من عظام المقاول
يفر إلى نجد وبرد مياهه ... ويزعم أنى لست عنكم بغافل (٢)
ويخبرنا — فعل المناصح أنه ... شفيق، ويخفى عارمات الدواخل (٣)
أمطعم لم أخذلك فى يوم نجدة ... ولا معظم عند الأمور الجلائل (٤)
ولا يوم خصم إذ أتوك ألدة ... أولى جدل من الخصوم المساجل (٥)
أمطعم إن القوم ساموك خطة ... وإنى متى أوكل فلست بوائل
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا ... عقوبة شر عاجلا غير آجل
بميزان قسط لا يخيس شعيرة ... له شاهد من نفسه غير عائل (٦)
لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا ... بنى خلف قيضا بنا والغياطل (٧)
ونحن الصميم من ذؤابة هاشم ... وآل قصى فى الخطوب الأوائل
وسهم ومخزوم تمالوا وألبوا ... علينا العدى من كل طمل وخامل (٨)
فعبد مناف أنتم خير قومكم ... فلا تشركوا فى أمركم كل واغل (٩)

---

(١) الدغاول : الأمور الفاسدة . . ولعلها قصد فيها الدغل

(٢) نجد : ما ارتفع من الأرض فى بلاد الحجاز

(٣) عارمات : بالراء الشدائد . . وبالزاى ما عزم على نفاذها — الدواخل : بالدال والخاء : التمائم والإفساد بين الناس . وبالذال والحاء : العداوات من الدخل وهو طلب الثأر .

(٤) المساجل بالجيم من المساجلة وهى معارضة الغير ويراد بها المعارضة فى الخصومة . . وبالحاء جمع مسحل وهو الخطيب البليغ

(٥) ساموك : كلفوك — وائل : ناج يقال ما وأل منه . . ما نجا

(٦) يخيس : ينقص . . ولا يخيس من خاس بالعهد إذا نقضه . . عائل : جائر . .

(٧) سفهت استحمقت . . قيضا بنا — عوضا عنا . . العياطل من بنى سهم بن عصيصى .

(٨) الطمل الرجل الفاحش لا يبالى ما صنع

(٩) الواغل الوصيل اللصيق وليس من القوم

لعمرى لقد وهنتم وعجزتم — وجئتم بأمر مخطىء للمفاصل (١)
وكنتم حديثا حطب قدر وأنتم — الآن أحطاب أقدر ومراجل (٢)
ليهن بنى عبد مناف عقوقنا — وخذلاننا وتركنا فى المعاقل
فان تك قوما نتئر ما صنعتم — وتحتلبوها لقحة غير باهل (٣)
وسائط كانت فى لؤى بن غالب — نفاهم إلينا كل صقر حلاحل
ورهط نفيل شر من وطىء الحصى — وألأم حاف من معد وناعل
فأبلغ قصيا أن سينشر أمرنا — ويشر قصيا بعدنا بالتخاذل
ولو طرقت ليلا قصيا عظيمة — اذا ما لجأنا دونهم فى المداخل
ولو صدقوا ضربا خلال بيوتهم — لكنا أسى عند النساء المطافل (٤)
لكل صديق وابن أخت نعده — لعمرى وجدنا غبه غير طائل
سوى أن رهطا من كلاب بن جمعهم — براء إلينا من معقة خاذل (٥)
وهنا لهم حتى تبدد جمعهم — ويحسر عنا كل باغ وجاهل
وكان لنا حوض السقاية فيهم — ونحن الكدى من غالب والكواهل (٦)
شبـــاب من المطيبين وهاشم — كبيض السيوف بين أيدى الصواقل

---

(١) مخطىء للمفاصل : لا يوافق صواب الأمور

(٢) المراجل القدور من النحاس خاصة

(٣) نتئر ما صنعتم : نأخذ بثأرنا منكم . . اللقحة : الناقة بها اللبن — غير باهل : غير ناقة باهل ، أى غير مصرورة مباحة لكل حالب

(٤) المطافل جمع مطفل وهى التى لها طفل . .

(٥) براء بالفتح — سلام يوصف به الواحد والجمع مذكرا ومؤنثا وبكسر الباء جمع برىء ككريم وكرام وحينئذ يوصف به الجمع وحد .. المعقة : العقوق . الخاذل يقابل الناصر

(٦) الكدى : جمع كدية . . وهى فى الأصل الصفاة الشديدة .. أراد أنهم مثلها فى العز والامتناع . . الكواهل : جمع كاهل يراد بهم هنا أسياد الناس الذين يرجعون اليهم فى أمورهم .

فما أدركوا ذحلا، ولا سفكوا دما ... ولا حالفوا إلا شرار القبائل

بضرب ترى الفتيان فيه كأنهم ... صوارى أسود فوق لحم خرادل (١)

بنى أمة محبوبة هندكية ... بنى جمح عبيد قيس بن عاقل (٢)

ولكننا نسل كرام لسادة ... بهم نعى الأقوام عند البواطل

ونعم ابن أخت القوم غير مكذب ... زهير حساما مفردا من حمائل

أشم من الشم البهاليل ينتمى ... إلى حسب فى حومة المجد فاضل (٣)

لعمرى لقد كلفت وجدا بأحمد ... وإخوته دأب المحب المواصل (٤)

فمن مثله فى الناس أى مؤمل ... إذا ماسه الحكام عند التفاضل

حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالى إلها ليس عنه بغافل

كريم المساعى ماجد وابن ماجد ... له إرث مجد ثابت غير ناصل

وأيده رب العباد بنصره ... وأظهر دينا حقه غير زائل

فوالله لولا أن أجيء بسبة ... تجر على أشياخنا فى المحافل

لكنا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جدا غير قول التهازل

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

فأصبح فينا أحمد فى أرومة ... يقصر عنها سورة المتطاول (٥)

---

(١) خرادل أى قطع عظيمة . .

(٢) رجل هندكى بالكسر فى الدال والكاف من أصل الهند . . وليس من أهله لأن الكاف ليست من حروف الزيادة

(٣) أشم : عزيز — البهاليل جمع بهلول : السيد

(٤) كلفت : أولعت معانى هذه الكلمات بتصرف من تحقيق وتعليق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد على ابن هشام .

(٥) التطاول بضم الواو . . منزلة . . وبالفتح : الشدة والبطش

حدبت بنفسي دونه وحميته ... ودافعت عنه بالذرا والكلاكل(١)

قال ابن هشام: هذا ما صح لى من هذه القصيدة، وبعض أهل العلم ينكر أكثرها.

وقال ابن كثير: هذه قصيدة عظيمة بليغة جدا لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه وهى أفحل من المعلقات السبع، وأبلغ فى تأدية المعنى فيها جميعاً وقد أوردها الأموى فى مغازيه مطولة بزيادات أخر.

وفى هامش ص ٥٧ جـ ٣ من البداية والنهاية، قال المحقق: فى سيرة ابن هشام زيادة على ما أورده المؤلف (ابن كثير) لهذه القصيدة، واختلاف فى بعض الألفاظ وتقديم وتأخير ليس هنا محل بسطه، ولهذه القصيدة نسخ مطبوعة على حدتها. وزاد ابن هشام هذه الأبيات: —

فلا زال فى الدنيا جمالا لأهلها ... وزينا لمن والاه رب المشاكل

رجال كرام غير ميل نماهم ... إلى الخير آباء كرام المحاصل

فان تك كعب من لؤى صقيبة ... فلابد يوما مرة من ترابل

قال محمد بن سلام فى كتابه «طبقات فحول العرب»: وكان أبو طالب شاعرا صد الكلام، وأبرع ما قال قصيدته التى مدح فيها النبى صلى الله عليه وسلم وفيها: —

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ربيع اليتامى عصمة للأرامل

وقد زيد فيها وطولت. رأيت فى كتاب يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة(٢) سنة ١٠ هـ

---

(١) حدبت: عطفت عليه ومنعته — الذرا جمع ذروة: أعلى ظهر البعير. الكلاكل: جمع كلكل.. وهو معظم الصدر.

(٢) قال الأستاذ محمود شاكر فى تحقيقه لكتاب ابن سلام: تحقيق عبارة «رأيت فى كتاب..... إلخ..» رأيتها فى كتاب يوسف بن سعد صاحبنا له أكثر ...» وذكر رواية ابن هشام لها وأنها طبعت بأكثر من هذا منفردة وفى «ديوان أبى طالب»

والحق أن فى القصيدة قوة ، منشؤها صدق دوافعها ، وعمق دواعيها وما تغلفه من مشاعر إعزاز أبى طالب لابن أخيه ويقينه أن مايدعو إليه الناس هو الحق لا ريب فيه ، يطالعنا كثيرا كثيرا فى هذه القصيدة التى طالت وحلقت فى سماوات المعانى الكبيرة فى أكثر أبياتها .

وماكان القوم ليخاصموا أبا طالب أو يجادلوا طرفة عين فى شرف نسبه وعظيم حسبه ، لكنهم خاصموه بعد أن تلطفوا كثيراً فى إثنائه عن نصرة ابن أخيه ، وأمعنوا فى ذلك حين لم يجدوا منه إذعاناً ولا ليانا ، وهو فى هذه القصيدة يعلن أنه حبس نفسه على قتالهم حين أيقن أنهم ما رعوا عهدا ولا حفظوا وداً ، مستجيبين فى ذلك لأمر الأعداء ومحالفين على أهلهم كل ظنين لا يرتفع فى مدارج الكرامة إلى شىء مما ذهب به محمد وصحبه .

وتمضى الأبيات فتصور استجارة أبى طالب بالله من عداوة من عاداه وهو يتعلق بأستار البيت مع رهطه وإخوته وفى كل مقام من باب الكعبة وفى أماكن كان لها فى الجاهلية قداسة وحرمة متعوذا بالله :

أعوذ برب الناس من كل طاعن ... علينا لسوء أو ملح بباطل

ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة ... ومن ملحق فى الدين ما لم نحاول

ثم يذكر ثورا ومن أرسى ثبيرا . . ثم يرد الأمر فيقول : وبالله . . . الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة . . ويذكر الحجر الأسود الذى يحيط به الناس بكرة وعشيا وما بين ذلك ، ومقام إبراهيم والسعى بين الصفا والمروة مشيرا إلى ما حطمه الإسلام من التماثيل والأوثان التى كانت هناك ، وذكر حجيج البيت راكبين أو راجلين ، والنازلين على عهده والوقوف بعرفة وما وراء ذلك من المشاعر التى خلصها دين التوحيد — بعد — من أوشاب الشرك . . ثم تساءل بعدذلك هل وراء ماذكر من ملجأ يلتجىء إليه العائذ ويلوذ اللائذ؟ ! بعد أن أطاع قومنا فينا أعادينا ، وقد تمنوا أن نفتديهم من خصومهم حتى فى بلاد الترك والعجم ! !

وأبو طالب يقسم كما كانوا يقسمون – ببيت الله – أن وجودهم فى الشعب لن يحقق لقريش أملهم فى أن تخلو مكة لهم وتخلص من محمد وصحبه والذين آزروهم، وأنهم لن يسلبوا محمدا ولن يسلموه لعدوه حتى يصرعوا حوله وينسى كل واحد منهم فى ذلك ولده وأهله ، وإن تطاول القتال أياما وشهوراً وأعواماً فان ترك محمد وإسلامه لعداه عار أى عار فانه « المبارك » الذى استقى آباؤه به صغيراً فسقى الله ببركته قومه .

قال ابن عساكر : وكان ابن عمر كثيرا ما ينشد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قول أبى طالب « وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... » البيت قال صاحب الفتح « والأرجح أن « أبيض » بالنصب ، عطفا على « سيدا » فى البيت قبله « وما ترك قوم لا أبالك سيدا .. » وبه جزم الدمامينى فى مصابيحه ، ورد به على ابن هشام ، واستظهره فى شرح المغنى وقال : هو من عطف الصفات التى موصوفها واحد » اهـ

ومحمد كهف أهليه ياوذون به فتغمرهم رحمته وأفضاله ونواله ، ويسعهم منه وحى عاصم ودين يعرفون أنه الحق ، ويغترفون منه ودا وإحسانا .

وعاد أبو طالب فذكر رجالا وقبائل سمعوا فيهم قول أعاديهم ، وجروا جريهم ، وسعوا فى البغضاء والشحناء سعيهم ، ونقضوا عهود الوداد ، وتأتى أفعالهم على نقيض ماوعدوا به من بر وإحسان ، وذلك من البغى الذى تدور عليهم دوائره وتجىء وفق أوائله أواخره ، وذكر بالخير أقواما هم براء من العقوق والخذلان .. وعاد يتحدث عن أرومته ليخلص إلى إبداء مشاعره نحو ابن أخيه « لعمرى لقد كلفت وجدا بأحمد » فمن مثله فى الناس فى حكمه وحلمه ورشده وعدله وثباته وتقواه ، لمولاه الذى لا يغفل عنه ولا يتخلى عن نصره ، ومحمد كريم المساعى ماجد من أماجد ، لا ينفد رصيدهم من الحب الباذخ والشرف الشامخ ، ذلك إلى تأييد الله له الذى يرونه مرات وكرات لو أن لهم عقولا تعى ، وإبصارا تدرك ، وقلوبا تذعن للحق بعد ما تبين .

وكرر بأسلوب آخر أنه لولا أن يسب باتباعه محمداً لاتبعه . . ولله الأمر من قبل ومن بعد ، ومحمد آخرة الأمر — كما عرفوه — ( ابنا ) الصادق الذى عصمه الله من مجاراة المبطلين فى قول أو فعل ، وبذلك تضاعف شرفه ، فلا يطاوله فى ذلك أحد . . وانتهى أبو طالب من هذه القصيدة بقوله :

حدبت بنفسى دونه وحميته ودافعت عنه بالذرا والكلاكل

ولقد صدق فى هذا وبر ، وكانت أعماله وأقواله فى ذلك على سواء . .

**أبو طالب والمسلمون فى الحبشة :**

ولقد ذكرت قبلا أن أبا طالب كان مع النبى وصحبه وقومه فى الشعب لا تغمض عينه عن رسول الله ، ولا يدع فرصة إلا ناشد فيها الطغاة أن يتقوا الله فى مقاطعتهم ، ولا يغيب عن خاطره أولئك الذين يعيشون بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة فى جوار النجاشى الذى استجاش أبو طالب نخوته ومروءته فى قصيدة مرت بين يديك .

فلما صنعت الأرضة ما صنعت بالصحيفة ، ونصر الله رسوله والذين معه بنفر من أولى النصفة من قريش تمنى أبو طالب أن يزف أحد خبر كل هذا إلى المسلمين فى الحبشة فقال : —

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا على نأيهم ، والله بالناس أرود(١)
فيخبرهم أن الصحيفة مزقت وأن كل ما لم يرضه الله مفسد
تراوحها إفك وسحر مجمع ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد
تداعى لها من ليس فيها بقرقر فطائرها فى رأسها يتردد(٢)

---

(١) بحرينا . . من ركبوا البحر إلى الحبشة . . أرود : أرفق
(٢) القرقر: اللين الرمل أو الهازل أو الذليل— طائرها : حظها والمراد حظها من الشؤم

| | |
|---|---|
| وكانت كفاء وقعة بأثيمة | ليقطع منها ساعد ومقلد (١) |
| ويظعن أهل المكتين ، فيهربوا | فرائصهم من خشية الشر ترعد (٢) |
| ويترك حراث يقلب أمره | أيتهم فيها عند ذاك وينجد (٣) |
| وتصعد بين الأخشبين كتيبة | لها حدج سهم وقوس ومرهد (٤) |
| فإن ينش من حضار مكة عزة | فعزتنا فى بطن مكة أتلد (٥) |
| نشأنا بها والناس فيها قلائل | فلم تنفكك تزداد خيراً وتحمد (٦) |
| وتطعم حتى يترك الناس فضلهم | إذا جعلت أيدى المفيضين ترعد (٧) |
| جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا | على ملأ يهدى لحزم ويرشد (٨) |
| قعودا لدى خطم الحجون كأنهم | مقاولة بل هم أعز وأمجد (٩) |
| أعان عليها كل صقر كأنه | إذا ماشى فى رفرف الدرع أجرد (١٠) |
| جرىء على جلى الخطوب كأنه | شهاب بكفى قابس يتوقد (١١) |

---

(١) المقلد : العنق الذى توضع فيه القلائد .

(٢) يظعن : يرحل — الفرائص .. جمع فريصة وهى مضغة فى مرجع الكتف ترعد إذا فزع الإنسان . .

(٣) حراث : مكتسب ، يقلب أمره — يدبره باعمال التفكر فيه

(٤) كتيبة : جيش .حدج أصل الحدج ، صغار الحنظل والحشخاش يشبه كثرتهم به .مرهد بكسر فسكون ففتح : ريح لين وكأنه أخذ من الرهادة أى النعمة

(٥) ينش : ينشأ تخفيفا على غير قياس أتلد : أقدم إشارة إلى مجدهم العريق

(٦) الخير بكسر : الكرم وبالفتح اسم جامع للفضائل

(٧) المفيضين : الضارببن قداح اليسر . يريد بهم المطعمين إذا بخل الناس

(٨) الملأ الجماعة من أشراف الناس ، الرهط — أراد بهم الذين تعاهدوا على نقض الصحيفة

(٩) خطم الحجون لعله أراد مدخله ،والخطم فى الحيوانات مقدمها

(١٠) رفرف الدرع : ما فضل منها .أجرد من الجرد وهو عيب الأرجل يراد به البطء المشى لمرضه أو لثقل الدرع . .

(١١) الجلى : الأمر العظيم ، القابس : آخذ النار أو مشعلها .

من الأكرمين من لؤى بن غالب ... إذا سيم خسفا وجهه يتربد (١)

طويل النجاد خارج نصف ساقه ... على وجهه يسقى الغمام ويسعد (٢)

عظيم الرماد سيد وابن سيد ... يحض على مقرى الضيوف ويحشد (٣)

ويبنى لأبناء العشيره صالحا ... إذا نحن طفنا فى البلاد ويمهد

ألظ بهذا الصلح كل مبرأ ... عظيم اللواء أمرد ثم نحمد (٤)

قضوا ماقضوا فى بعضهم ثم أصبحوا ... على مهل وسائر الناس رقد (٥)

هم رجعوا سهل بن بيضاء راضيا ... وسر أبو بكر بها ومحمد (٦)

متى شرك الأقوام فى جل أمرنا ... وكنا قديما قبلها نتودد

وكنا قديما لا نقر ظلامة ... وندرك ما شئنا ولا نتشدد

فيا لقصى هل لكم فى نفوسكم ... وهل لكم فيما يجىء به غد

فانى وإياكم كما قال قائل ... لديك البيان لو تكلمت أسود (٧)

إن القصيدة — كما أسلفت — تفيض عاطفة برة نحو الذين عملوا من قريش على نقض الصحيفة الظالمة ، ونحو الذين طوح بهم ظلم المشركين والتجاؤهم إلى الحياة بعيداً عن بلد الله الحرام وبيته العتيق ، ونحو محمد صلوات الله وسلامه عليه ذاك الذى أسرف القوم فى أذاه إلى هذا الحد من الحصار

---

(١) الخسف الذل . . يتربد يتغير إلى السواد . .

(٢) النجاد : حمائل السيف

(٣) عظيم الرماد : كناية عن كرمه — مقرى الضيوف : إكرامهم وقراهم أو هو الطعام نفسه . .

(٤) ألظ بالصلح : ألح به ولزمه

(٥) لو قال « على مهل والناس أجمع رقد » لصح الوزن واتضح المعنى أو « والناس من بعد رقد »

(٦) رجعوا أى أرجعوا وهو تعبير قرآنى « فان رجعك الله .. » التوبة ..

(٧) أسود : جبل قتل فيه قتيل لم يعرف قاتله فقال أولياء المقتول هذه القالة فذهبت مثلا ، نقلا بتصرف عن تحقيق الشيخ محيي الدين عبد الحميد للسيرة : :

الاقتصادى الذى استهدفوا به موته وقومه والذين رضوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا ، وكفروا بأوثان القوم وشركهم البغيض .

وأبو طالب يقرر أن الله صانع كل خير ، وأنه يتدارك عباده بلطفه فى اللحظات التى تصطلح فيها النوائب وتتواثب على الأبرار الصعاب ، فهو بالناس رءوف رحيم ، بر كريم .

وإذا كان من الناس من ينسى من غاب وتنقطع بينه وبينهم الأسباب فإن أبا طالب يذكر على بعد الدار مهاجرى الإسلام فى الحبشة ، ويتمنى أن يعلموا علم الصحيفة الآثمة وكيف مزقها الله الذى لا يرضى الفساد وكل ما لا يرضاه يتبدد ولا يتوطد وأى شىء هو أضل من الصحيفة التى يؤلفها الكذب والزور والباطل ، ومصير كل ذلك إلى زوال لتبقى الفرصة للحق « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه » .

« وما يبدىء الباطل وما يعيد » .

وهو يؤكد أن ما تآمر به القوم كان دفعة أثيمة أرادوا بها قطع الأيدى والأعناق إن لم يهرب أهل مكة مرتعدى الفرائص من تألب أهل المكتين عليهم ، حيث لا يدرى هؤلاء أين يذهبون.. أيهبطون إلى أودية الحجاز أم يفرون إلى تخوم نجد ؟!

ويفاخر أبو طالب — بحق — أهل مكة بعزه التليد ومجده الأكيد الذى واكب مكة منذ كانت والناس فيها قليلو العدد فكان شرفنا يطول وحسبنا يعلو بفعال من الخير وإسداء للمعروف يقصر دونه أيدى الآخرين.

ثم يضفى على المنصفين الأبرار من قريش برود مدحه وينثر عليهم زهرات حمده منذ تواصوا عند الحجون على إنهاء ما يكابده محمد وصحبه وقومه من عزاء .. فكأنهم الملوك حين قالوا كلمة الحق أقوياء بل أعز وأمجد وكأنهم الشهب الثواقب التى تبدد الدياجى وتملأ الحياة بالنور ، وحسبهم أنهم من الأكرمين من لؤى بن غالب ، الذى أبى الظلم ، واستعصى

على الضيم ، وكان شجاعا بوجهه يستسقى الغمام ويشيع فى الناس الوئام والسلام وكان كريما ماجدا وابن ماجد ، دأبه الحض على قرى الضيف وإطعام الطعام ويحشد لذلك فعلا بعد قول ، وهو يبنى الصالحات لقومه ، ويمهد لهم حياة السعة والدعة أن شغل غيره الصفق فى البلاد والتطواف فى رحلة الشتاء والصيف . ولؤى بن غالب هو الذى نما هؤلاء الأبرار الذين حرصوا على إنهاء القطيعة وإتاحة فرصة الأمن بعد الخوف ، والسلام بعد الظلم والعسف الذى حاق بالمحمودى انفعال من كل مبرأ عظيم اللواء أمره ثم يحمد » .

وكم كان أبو طالب مصورا بارع التصوير وكأن ألفاظه آلة دقيقة الحس شهدت القوم يتواصون على نقض الصحيفة ، فسجلت ما هنالك صورة ولفظا ثم صحبتهم وهم يأتون قومهم ويقضون على ظلمهم فى لحظات فيشيعون الحيرة والحسرة فى أنفس سهل بن بيضاء وأبى بكر ومحمد صلوات الله عليه، وأى شىء هو أبعث للغبطة من زوال الضلال وإحباط ما صنع الجهال ؟!

وإنها لنهاية ينبغى أن يعيها الطغاة وأن يوقنوا أن العاقبة للتقوى وإن طال المدى .

### آخر ما قال أبو طالب من الشعر :

وهذه القصيدة آخر ما قال أبو طالب من الشعر فيما تبين لى من مراجعى وفى هذا القدر من شعره غنية وكفاية مما نحن بسبيله من إبراز بعض محاسن الإسلام ، ومزايا الرسول عليه الصلاة والسلام من شعر صحت نسبته إليه وليس يعنينا فى كثير أو قليل ما وراءه مما تحتاج نسبته إليه — إن وجدناه — إلى دليل « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين »(١) .

---

(١) النحل : ٩

## نهاية أبي طالب :

كثر كلام المتكلمين فى هذه النهاية وكانت مشار بهم شجونا ، فما يتحامل على أبى طالب إنسان فى قلبه مثقال ذرة من حب الحق وتوجيه الله « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى »(١) .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء الله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ... »(٢) .

وفى الناس من يخضع الحق لهواه ولا يقبل من الله هداه « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين »(٣) .

وهؤلاء مادامت الأهواء تنهزهم ، يلبسون الحق بالباطل ، ويفترون على الله الكذب ، جاهلين أن نور الحق يذهب لا محالة جحافل الظلام .

فلنعرض من كلام هؤلاء وأولئك أطرافا ولننظر إليها فى نور الإسلام ، ولنزنها بميزان الحق « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل »(٤) .

عن هشام بن السائب الكلبى أو أبيه — أنه قال « لما حضرت أبا طالب الوفاة جمع إليه وجوه قومه فأوصاهم فقال : يا معشر قريش ، إنكم صفوة الله من خلقه وإنى أوصيكم بمحمد خيرا فإنه الأمين فى قريش ، والصديق فى العرب وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ، وقد جاء بأمر قد قبله الجنان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن ، وأيم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ودورها خرابا وضعفاؤها أربابا ، فإذا أعظمهم إليه أحوجهم إليه

---

(١) الأنعام : ١٥٢ .
(٢) النساء : ١٣٥ .
(٣) القصص : ٥٠
(٤) الأحزاب : ٤ .

وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها وأصغت له فؤادها وأعطت له قيادها .. يا معشر قريش كونوا له ولاة ، ولحرمه حماة ، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة ، ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز ، ولدفعت عنه الدواهي».. ثم هلك ودفن بصدر الشعب أعلى الحجون !!

والكلمة تعكس ما رأيناه في شعر أبي طالب فهي نثر كالشعر جرسا وحسنا للصدق الذي تمليه والحق الذي تعبر عنه وترويه ...

وإذا كان الرواة قد وقفوا منها عند هذا الحد دون أن يروا من أصدائها في القوم شيئا فخذوا رواية ابن هشام رجاء أن تكمل بها الصورة .

قال ابن إسحاق : ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشا ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض أن حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا فانا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا .

قال ابن اسحاق : وحدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس قال : لما مشوا إلى أبي طالب وكلموه وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب في رجال من أشرافهم فقالوا : يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا ونكف عنه وليدعنا وديننا وندعه ودينه.فبعث إليه أبو طالب فجاء فقال : « يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك،قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وندين لكم بها العجم » .

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٢٣

فقال أبو جهل : « نعم وأبيك وعشر كلمات » .

قال : « تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » .

فصفقوا بأيديهم ثم قالوا : يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ؟ ! إن أمرك لعجب . .

قال ثم قال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه.. ثم تفرقوا .

قال : فقال له أبو طالب . : والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا ! !

قال : فطمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، فجعل يقول له : « أى عم : فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة » .

فلما رأى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا ابن أخى والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى وأن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعا من الموت لقلتها ، لا أقولها إلا لأسرك بها ! !

قال : فلما تقارب من أبى طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه ، فأصغى إليه بأذنه قال : فقال — أى العباس — يا ابن أخى ، والله لقد قال أخى الكلمة التى أمرته أن يقولها ! !

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم أسمع » .

قال : وأنزل الله تعالى فى أولئك الرهط : «ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى عزة وشقاق(١) ... » . الآيات .

---

(١) صورة ص — ١ وما بعدها .

إن أبا طالب حتى فى هذه اللحظات الأخيرة التى لم يسمع الرسول فيها منه كلمة الإسلام كان على المستوى الذى عاش عليه . . . . ألا تذكرون قوله هنا . . . والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا ؟ !!

وهى كلمة رقيقة حانية أطمعت رسول الله صلوات الله عليه فى أن تكون منطلق عمه إلى خير . . إلى الخير الذى يعود عليه فى عاجل وآجل لاعلى الإسلام دين الله الذى يمهد له الطريق ، ويهيىء له المؤمن المذعن الصديق ! !

قال ابن كثير (١) : وقد استدل بعض من ذهب من الشيعة وغيرهم من الغلاة على أن أبا طالب مات مسلما بقول العباس : «يا بن أخى لقد قال أخى الكلمة التى أمرته أن يقولها — يعنى لا إله إلا الله .. » .

قال ابن كثير : والجواب عن هذا من وجوه :

أحدها : أن فى السند مبهما لا يعرف حاله ، وهو قوله : عن بعض أهله » وهذا إبهام فى الاسم والحال ومثله يتوقف فيه لو انفرد . . » .

وذكر أن الإمام أحمد والنسائى وابن جرير والثورى قد رواه أكثرهم نحواً من هذا السياق ، ورواه بعضهم بغير زيادة قول العباس ورواه الترمذى وحسنه والنسائى وابن جرير ، وساق رواية البيهقى للحديث من طريق الثورى إلى ابن عباس .

قال ابن كثير : « وقد عارض سياق ابن إسحاق ما هو أصح منه وهو رواية البخارى بسنده عن ابن المسيب عن أبيه . أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل فقال :

« أى عم . قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله » .

---

(١) البداية والنهاية جـ٣ ص ١٢٣ — ١٢٤ .

فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ ! فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر ما كلمهم به : «على ملة عبد المطلب » . .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لأستغفرن لك مالم أنه عنه » فنزلت : « ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » .

ونزلت « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » .

قال : ورواه مسلم بطريقه عن عبد الرزاق ، وأخرجاه من حديث الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبيه بنحوه ، وقال فيه : « فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى قال آخر ما قال «على ملة عبد المطلب »وأبى أن يقول « لا إله إلا الله » فقال صلى الله عليه وسلم « أما لأستغفرن لك مالم أنه عنه » . فأنزل الله -- يعنى بعد ذلك -« ما كان للنبى » . . الآية . . ونزل فى أبى طالب « إنك لا تهدى من أحببت » . الآية ،واسترسل ابن كثير فى سوق روايات لم تختلف فى طرقها ولا فى متنها كثيراً إلا قول أبى طالب للرسول لولا أن تعيرنى قريش يقولون ماحمله عليه إلا فزع الموت لأقررت بها عينك ، ولا أقولها إلا لأقربها عينك » فأنزل الله « إنك لا تهدى . . . » الآية وقوله : « هو على ملة الأشياخ » .

قال ابن كثير :(١) ويؤكد هذا كله ما قال البخارى بسنده عن عبد الله ابن الحارث قال : حدثنا العباس بن عبد المطلب أنه قال : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم : ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك » ؟

قال « هو فى ضحضاح من نار ؛ ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل ».

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٣

وذكر أن مسلم رواه من طرق عن عبد الملك بن عمير به أخرجاه فى الصحيحين من طريق الليث إلى ابن سعيد أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم وذكر عنده عمه فقال « لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه » . لفظ البخارى وفى رواية « تغلى منه أم دماغه » :

وأورد ابن كثير عن مسلم بسنده « أهون أهل النار عذابا أبو طالب ، ينتعل بنعلين من نار يغلى منهما دماغه » .

وأورد رواية الحافظ أبى بكر البزار الذى تفرد به وهو قريب مما رواه غيره . : .

وأورد قول السهيلى وإنما لم يقبل النبى صلى الله عليه وسلم شهادة العباس أن أخاه قال الكلمة وقال النبى « لم أسمع » لأن العباس كان إذ ذاك كافراً غير مقبول الشهادة .

قال ابن كثير : وعندى أن الخبر بذلك ما صح لضعف سنده كما تقدم ومما يدل على ذلك أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك عن أبى طالب فذكر له ما تقدم(١) :

وبتعليل صحته . . أى صحة ما قال العباس . « لعل أبا طالب قال ذلك عند معاينة الملك بعد الغرغرة حين لا ينفع نفساً إيمانها » . :

وأورد رواية الطيالسى بسنده عن ناجية بن كعب أنه سمع عليا يقول : « لما توفى أبى أتيت رسول الله فقلت إن عمك قد توفى فقال : « اذهب فواره » : فقلت « إنه مات مشركا » : فقال : اذهب فواره ولا تحدثن شيئاً حتى تأتى « فلما أتى أمره أن يغتسل » .

---

(١) قال صاحب الإصابة « لو كان قال كلمة التوحيد ما نهى الله تعالى نبيه عن الاستغفار له وهذا الجواب أولى مما قيل » ج ٤ القسم ٤ .

وقال رواه النسائى بسند ، ورواه هو وأبو داود بسند آخر أن عليا قال « يا رسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات فمن يواريه ؟ » ، فذكر النبى نحو ما سبق قال على « ثم دعالى بدعوات ما يسرنى أن لى بهن ما على الأرض من شىء » وأورد أحاديث فى رواتها كلام أن الرسول شيع جنازة عمه ولم يقم على قبره . .

وأرى الإمام ابن حجر قد ذكر كل ما تقدم وزاد عليه من ابن عساكر وغيره ما لابد من وضعه تحت نظر الباحث فى هذا الموضوع جلاء لحقيقة.

قال الإمام ابن تيمية فى تحقيق معنى الإيمان « وأبو طالب وغيره كانوا يحبون النبى صلى الله عليه وسلم ويحبون علو كلمته وليس عندهم حسد له وكانو يعلمون صدقه ولكن كانوا يعلمون أن متابعته فراق دين آبائهم وذم قريش لهم مما احتملت نفوسهم ترك العادة واحتمال هذا الذم .. فلم يتركوا الإيمان لعدم العلم بصدق الإيمان به ، بل لهوى النفس فكيف يقال إن كل كافر إنما كفر لعدم علمه بالله » ؟ !

ولقد كنت قدمت سطوراً من ابن حجر عن أبى طالب ، وتركت ما تركت حتى تبلغ هذا المدى من البحث وقد آن أن نصل هنا ما انقطع هناك .

« أخرج ابن عدى عن طريق الهيثم البكائى عن أنس قال : مرض أبو طالب فعاده النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا ابن أخى ادع ربك الذى بعثك يعافينى فقال : « اللهم اشف عمى » . فقام كأنما نشط من عقال فقال : يا ابن أخى . . إن ربك ليطيعك فقال : «وأنت لو أطعته ليطيعنك ».

وفى زيادات يونس بن بكير فى المغازى عن يونس بن عمرو عن أبى السفر قال : بعث أبو طالب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أطعمنى من عنب جنتك ».

فقال أبو بكر : إن الله حرمها على الكافرين ! !

قال ابن حجر « وذكر جمع من الرافضة أنه مات مسلما وتمسكوا بما نسب إليه من قوله : « ودعوتنى وعلمت أنك صادق . . . » الأبيات :

وأورد قول ابن عساكر من ترجمته لأبى طالب « قيل إنه أسلم ولا يصح إسلامه » ا هـ قال ولقد وقفت على تصنيف لبعض « القوم » أثبت فيه إسلام أبى طالب وأورد أدلة منها :

١ — ما أسلفناه وانتهى بقول أبى طالب « . .. لا أقولها إلا لأسرك بها » . . وقول العباس « إنه قال الكلمة . . . » .

٢ — ومن طريق إسحاق بن عيسى الهاشمى عن أبيه سمعت المهاجر مولى بنى نفيل يقول : سمعت أبا رافع يقول سمعت أبا طالب يقول : سمعت ابن أخى محمد بن عبد الله يقول « إن ربه بعثه بصلة الأرحام وأن يعبدالله وحده لا يعبد معه غيره ومحمد الصدوق الأمين » .

٣ — ومن طريق الهوزنى أن رسول اللهصلى الله عليه وسلم خرج معارضا جنازة أبى طالب وهو يقول : « وصلتك رحم » .

٤ — وعن طريق عبد الله بن ضميرة عن أبيه عن على أنه لما أسلم قال له أبو طالب ، « الزم ابن عمك » .

٥ — وعن طريق أبى عبيدة معمر بن المثنى بسنده إلى عمران بن حصين أن أبا طالب قال لجعفر بن أبى طالب لما أسلم : « قبل جناح ابن عمك فصلى جعفر مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم » .

٦ — ومن طريق محمد بن زكريا العلائى إلى أبى صالح عن ابن عباس قال جاء أبو بكر بأبى قحافة وهو شيخ قد عمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تركت الشيخ حتى آتيه ؟ !

قال : « أردت أن يأجره الله ، والذى بعثك بالحق لأنى كنت أشد فرحا باسلام أبى طالب منى بإسلام أبى ألتمس بذلك قرة عينك » .

قال ابن حجر « وأسانيد هذه الأحاديث واهية وليس المراد بقوله فى الحديث السادس إثبات إسلام أبى طالب فقد أخرج عمر بن شبة فى كتاب مكة وأبو يعلى وأبو بشر سمويه فى فوائده كلهم من طريق محمد بن سلمة بطريقه إلى أنس فى قصة إسلام أبى قحافة قال :

فلما مد يده يبايعه بكى أبو بكر فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك ؟ قال : «لأن تكون يد عمك مكان يده ويسلم ويقر الله عينك أحب إلى من أن يكون » وسنده صحيح .

وعلى تقدير ثبوت الأحاديث التى رووها فقد ورد ما هو أصح منها .. وذكر الحديث المتفق عليه من طريق الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبيه — وقد أسلفناه — وفيه كلام أبى جهل وعبد الله بن أبى أمية لأبى طالب حتى قال « هو على ملة عبد المطلب » وعده رسول الله بالاستغفار له ما لم ينه عنه ونزول الآيتين من سورة التوبة والقصص .

وقال : فهذا هو الصحيح يرد الرواية التى ذكرها ابن اسحاق إذ لو كان قال كلمة التوحيد ما نهى الله تعالى نبيه عن الاستغفار له ، .. وهذا الجواب أولى من قول من قال : إن العباس ما أدى هذه الشهادة وهو مسلم وإنما ذكرها قبل أن يسلم فلا يعتد بها ! !

وقد أجاب صاحب المصنف المذكور عن قوله « هو على ملة عبدالمطلب » بأن عبد المطلب مات على الإسلام واستدل بأثر مقطوع عن جعفر بن محمد — أقدمه للقارىء مما ذكره الإمام ابن حجر فى الإصابة متأخراً — من طريق راشد الحمانى قال :

سئل أبو عبد الله جعفر بن محمد — الصادق — : من أهل الجنة ؟! فقال : الأنبياء فى الجنة ، والصالحون فى الجنة والأسباط فى الجنة وأجمل العالمين مجدا محمد صلى الله عليه وسلم يقدم آدم فمن بعده من آبائه وهذه الأصناف يحدثون به . ويحشر عبد المطلب به نور الأنبياء وجمال الملوك ، ويحشر

أبو طالب فى زمرته ، فإذا ساروا بحضرة الحساب ، وتبوأ أهل الجنة منازلهم ودحر أهل النار ارتفع شهاب عظيم لا يشك من رآه إنه غيم من النار فيحضر كل من عرف ربه من جميع الملل ، ولم يعرف نبيه ؛ ومن حشر أمة واحدة والشيخ الفانى والطفل ، فيقال لهم : إن الجبار تبارك وتعالى يأمركم أن تدخلوا هذه النار ، فكل من اقتحمها خلص إلى أعلى الجنان ، ومن كع عنها غشيته » . ووصف ابن حجر هذه السلسلة بما يستبطها . . ثم قال : وهذا الحديث ورد من عدة طرق فى حق الشيخ الهرم ومن مات فى الفترة ومن ولد أكمه أعمى أصم ومن ولد مجنونا أو طرأ عليه الجنون قبل أن يبلغ ونحو ذلك ، وأن كلا منها يدلى بحجة ويقول : لو عقلت أو ذكرت لآمنت ، فترفع لهم نار وقال لهم : ادخلوها فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ومن امتنع أدخلها كرها(١) .

قال ابن حجر : هذا معنى ما ورد من ذلك وقد جمعت طرقه فى جزء منفرد ونحن نرجو أن يدخل عبد المطلب وآله فى جملة من يدخلها طوعا فينجو . .

لكن ورد فى أبى طالب ما يدفع ذلك — مما أوردنا وسنورد — من مثل ما كان ختامه « ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل » فهذا شأن من مات على الكفر فلو كان مات على التوحيد لنجا من النار أصلا ! !

قال ابن حجر .. والأحاديث الصحيحة والأخبار المتكاثرة طافحة بذلك ، وقد فخر المنصور على محمد بن عبد الله بن الحسن لما خرج بالمدينة ، وكانت المكاتبات المشهورة ومنها فى كتاب المنصور :

« وقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم وله أربعة أعمام ، فآمن به اثنان ، أحدهما أبى ، وكفر اثنان ، أحدهما أبوك ! !

(١) كع : جبن وأحجم وامتنع كما أوردها ابن حجر بعده .

ومن شعر عبد الله بن المعتز يخاطب الفاطميين :—

وأنتم بنو بنتــه دونـنـا ونحن بنو عمه المسلم !!

وأما الحديث الثاني في التصنيف الآنف الذكر .. وفيه شهادة أبي طالب بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم فالجواب عنه وعما ورد من شعر أبي طالب في ذلك أنه نظير ما حكى الله عن فرعون في قوله :—

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ... » .

فكان كفرهم عنادا ومنشؤه من الأنفة والكبر. وإلى ذلك أشار أبو طالب بقوله : « ولولا أن يعيرني قريش » في الحديث الشعر .

وأما الثالث : وهو أثر الهوزني فهو مرسل ، ومع ذلك فليس في قوله « وصلتك رحم » ما يدل على إسلامه بل فيه ما يدل على عدمه ، وهو معارضته لجنازته ، إذ لو كان أسلم لمشى معه وصلى عليه .. وقد ورد ما هو أصح منه ، وهو حديث علي — وقد ذكرناه قبلا — وقد أخرجه المذكور من وجه آخر عن ناجية عن علي بدون قوله « الضال » .

وأما الرابع والخامس : وهو أمر أبي طالب ولده باتباعه فتركه ذلك هو من جملة العناد ، وهو أيضاً من حسن نصرته له وذبه عنه ومعاداته قومه بسببه ..

وأما قول أبي بكر ، فمراده : لأني كنت أشد فرحاً باسلام أبي طالب مني بإسلام أبي ، أي لو أسلم ! ! ويبين ذلك ما أخرجه أبو قرة موسى ابن طارق بسنده عن ابن عمر قال : جاء أبو بكر بأبي قحافة يقوده يوم فتح مكة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تركت الشيخ حتى نأتيه؟! فقال أبو بكر: أردت أن يأجره الله والذي بعثك بالحق لأني كنت أشد فرحاً بإسلام أبي طالب لو كان أسلم ، مني بأبي ! !

وذكر ابن إسحاق أن عمر لما عارض العباس فى أبى سفيان لما أقبل به ليلة الفتح . فقال له العباس : لو كان من بنى عدى ما أحببت أن يقتل فقال عمر : أنا بإسلامك إذ أسلمت أفرح منى بإسلام الخطاب . يعنى لو كان أسلم .

وأضاف ابن حجر إلى ما استشهد به القوم على إسلام أبى طالب ودحضته الحجج الدامغة قولهم من طريق على بن متيم بسنده إلى على بن أبى طالب قال : « تبع أبو طالب عبد المطلب فى جميع أحواله حتى خرج عن الدنيا وهو على ملته . . وقد أسلفنا أنه مات على ملة الجاهلية—قال : وأوصانى أن أدفنه فى قبره ، فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «اذهب فواره ، وأتيته لما أنزل به فغسلته وكفنته وحملته إلى الحجون ، فنبشت عن قبر عبد المطلب فوجدته متوجهاً إلى القبلة فدفنته معه » .

قال متيم : ما عبد على ولا أحد من آبائه إلا الله ، إلى أن ماتوا ! !

وذكر ابن حجر سلسلة هذا الحديث ووصفها بما ترفض به أو ذكر أن هؤلاء استدلوا على ما زعموه مما أبطلته الأدلة بقوله تعالى «فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون »(١). فقالوا « وقد عزره أبو طالب بما اشتهر وعلم ونابذ قريشا وعاداهم بسببه مما لا يدفعه أحد من نقلة الأخبار فيكون من المفلحين » اهـ .

وهذا مبلغهم من العلم ، ونحن نسلم أنه نصره وبالغ فى نصره ، لكنه لم يتبع النور الذى أنزل معه وهو الكتاب العزيز الداعى إلى التوحيد ، ولا يحصل الفلاح إلا بحصول ما ترتب عليه من الصفات كلها . . . » .

وأورد الأحاديث التى يقول فيها أبو طالب للرسول صلى الله عليه وسلم : بم بعثت ؟ !

---

(١) الأعراف : ١٥٧ .

وأن الرسول حدثه بأنه بعث بكذا وكذا . . . .

وأن الخطيب قال أن هذا الحديث لم يثبته أحد من أهل العلم بالنقل ، وأن فى إسناده غير واحد من المجهولين وذاهبى الحديث كجعفر .

وكان ابن حجر قد أورد فى أول ترجمته لأبى طالب عن الإمام أحمد من طريق حبة العرنى قال : رأيت عليا ضحك على المنبر حتى بدت نواجذه حين تذكر قول أبى طالب وقد ظهر عليه قال ، وهو يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ببطن نخلة فقال له : « ماذا تصنعان ؟! » فدعاه إلى الإسلام فقال أبو طالب : « ما بالذى تقول من بأس ، ولكن والله لايعلونى أستى أبداً » .

ثم انتهى من ترجمته بقول ابن عساكر : والصحيح ما أخرجه مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى « أن أبا طالب تنفعه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجعل فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه . . . » . وقد تقدم ! !

وأورد هنا كلمات لابن كثير أنهى بها كلامه عن أبى طالب قال :

وقد قدمنا ماكان يتعاطاه أبو طالب من المحاماة والمحاجة والممانعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والدفع عنه وعن أصحابه ، وما قاله فيه من المدائح والثناء ، وما أظهره له ولأصحابه من المودة والمحبة والشفقة فى أشعاره التى قدمناها ، وما تضمنته من العيب والتنقيص لمن خالفه وكذبه بتلك العبارة البليغة الفصيحة الهاشمية المطلبيه التى لا تدانى ولا تسامى ولا يمكن عربياً مقاومتها ولا معارضتها وهو فى ذلك كله يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق بار راشد ولكن مع هذا لم يؤمن قلبه ، وفرق بين علم القلب وتصديقه وشاهد ذلك قول الله تعالى « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون »(١) .

---

(١) البقرة : ١٤٦ .

وقال تعالى فى قوم فرعون « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ... »(١) .

وقال موسى لفرعون « لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً »(٢) .

وقول بعض السلف فى قوله تعالى « وهم ينهون عنه وينأون عنه »(٣) . إنها نزلت فى أبى طالب حيث كان ينهى الناس عن أذية رسول الله صلى الله عليه وسلم وينأى هو عما جاء به الرسول من الهدى ودين الحق فقد روى عن ابن عباس والقاسم بن مخيمرة وغيرهم - ففيه نظر - والأظهر الرواية الأخرى عن ابن عباس : وهم ينهون الناس عن محمد أن يؤمنوا به ، وذكر جمهرة ممن قالوا ذلك واختاروه . . وتوجيهه : أن هذا الكلام سيق لتمام ذم المشركين حيث كانوا يصدون الناس عن اتباعه ولا ينتفعون هم أيضاً به ، ولهذا قال « ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ، وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » وهذا لفظ « وهم » يدل على أن المراد بهذا جماعة هم المذكورون فى سياق الكلام وقوله « وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » يدل على تمام الذم ،وأبو طالب لم يكن بهذه المثابة بل كان يصد الناس عن أذية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بكل ما يقدر عليه من فعال ومقال ، ونفس ومال ، ولكن مع هذا لم يقدر الله له الإيمان لما له تعالى فى ذلك من الحكمة العظيمة والحجة القاطعة البالغة الدامغة التى يجب الإيمان بها والتسليم لها ، ولولا ما نهانا الله عنه من الاستغفار للمشركين لاستغفرنا لأبى طالب وترحمنا عليه » . ا هـ .

وأجل لولا ذلك فالمؤمن وقاف أبدا حيث أمر الله ، لا يستقدم ولا

---

(١) النمل : ١٤ .
(٢) الإسراء : ١٠٢ .
(٣) الأنعام : ٢٥ : ٢٦ .

يستأخر « وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم »(١) .

**حكمة العليم الحكيم :**

إن كلمة ابن كثير لتتجاوب أصداؤها فى نفس كل محب لله ولرسوله وللمعروف تنبسط به يد وينطلق لسان،وأبو طالب مثل فى الفضل والنبل شرود ، يرى المؤمنون أنفسهم حياله يتساءلون.. فيم كان إصراره على غير ما استعلن به وأوذى فيه ؟ !

ولقد يكون ما أسلفنا من كلام ابن كثير جوابا ، لكننى أشبع هذا الجواب وضوحا من كلام ابن كثير نفسه — رحمه الله — فقد قال :

« وكان استمراره — أبى طالب — على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركى قريش وجاهة ولا كلمة ، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ، ولا اجترأوا عليه ولووا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه وربك يخلق ما يشاء ويختار،وقد قسم خلقه أنواعاً وأجناساً فهذان العمان كافران — أبو طالب وأبو لهب — ولكن هذا يكون فى القيامة فى ضحضاح من نار ، وذلك فى الدرك الأسفل من النار »(٢) .

وهى حكمة قدح زنادها الإمام ابن قيم الجوزية فى زاد المعاد كذلك ، ولقد عقد الشيخ رشيد رضا فصلا فى تفسيره تحت عنوان « حكمة النصوص فى كفر بعض أرحام الرسل الأقربين » . نقتطف منه هذه الكلمات الدالة .

« إن الحب الصحيح لله ولرسوله الذى هو آية الإيمان ، إنما يثبت ويتحقق بالاتباع وإقامة الدين ومن يرجح قرابة الرسول على رسالته فانما حبه له ولهم حب هوى للعصبية والنسب لا حب هدى باتباع ما أوجب الله

---

(١) الأحزاب : ٣٦ .

(٢) البداية والنهاية حـ ٣ ص ٤٠ — ٤١ .

على لسانه أو استحب ، وقد كان أبو طالب أشد الناس حباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، عصبية لقرابته ، لا اتباعا لرسالته ،وكل مؤمن يتمنى لو كان آمن به ، كما روى عن الصديق من تفضيل إيمانه على إيمان والده» . .

وانتهى الشيخ رشيد من فصله المسترسل ، بإجمال نورده لأهميته وهو « حظر إيذاء الرسول أو آله بذكر أبويه أو عمه بسوء » فقال :

« إذا علمت أن حكمة بيان كتاب الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم الكفر من ذكر ، وعذابهم في النار ، هى تقرير أساس الدين ، وهو التوحيد على أكمل وجه . فاعلم أن الذى يطلب شرعا هو أن يذكر ذلك فى مقام التعليم وهو يشمل قراءة القرآن وتفسيره ورواية الحديث وشرحه ، ومنه أو مثله السيرة النبوية وتاريخ الإسلام وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة ومن وافقهم من الفرق والرد على من خالفهم ،ولا يجوز أن يتجاوز ذلك إلى ما يخل بالأدب ويؤذى الرسول أوآله بحسب أو نسب ،وناهيك بالأم والأب وبأبى طالب دون أبى لهب ، بل لا ينبغى أن يذكر أبو لهب بسوء موصوفا بكونه عم الرسول صلى الله عليه وسلم إلا فى مقام التعليم والبيان الذى تقدم . .

وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن عائشة قالت : « استأذن حسان ابن ثابت النبى صلى الله عليه وسلم فى هجاء المشركين » فقال صلى الله عليه وسلم :

«كيف بنسبي فيهم » . ؟!

فقال حسان : «لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين » أى لأخلصن نسبك من أنسابهم حتى لا يصيبه من الهجو شيء .

وكذلك فى هجو أبى سفيان فقال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) تفسير المنار جـ ٦ ص ٥٤٥ وما بعدها .

« فكيف بقرابتى منه » . ؟ ! فأجاب حسان بنحو ما تقدم . . وقد كان أبو سفيان يومئذ أشد الناس عداوة للنبى صلى الله عليه وسلم ».اهـ(١).

ولقد حمل عبيدة بن الحارث رضى الله عنه جريحاً من أرض أحد وهو يذكر أبا طالب ويقول : « لو رآنا أبو طالب لعلم أننا أحق منه بقوله :

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فيسفر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رضى بما كان ، وتسليما لقضاء الله فى عمه الواصل الودود . .

**أما بعد :**

فهذا جهد المقل ،ومعذرة فما أحسبنى بلغت به المدى وإن كنت لم أدخر وسعا فى مراجعة ما استطعت الحصول عليه من مراجع فى عدد من دور الكتب ، والمكتبات الخاصة والعامة . .

وقد كنت قرأت فى بكرة العمر كتاباً للغمارى عن « إسلام أبى طالب » وفى ردود العلماء كما عرضتها رد عليه وعلى ما وراءه من كتب القوم التى لم تتح لى .

والله أعلم بنياتنا من أنفسنا ، ونسأله — جلت آلاؤه — أن يغفر لنا ما فرط منا ، وأن يهبنا التوفيق فى أمرنا كله وأن يلزمنا الصواب على كل حال .

« ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

# مراجع البحث


١ — القرآن الكريم
٢ — كتب التفسير
٣ — كتب السنة
٤ — البداية والنهاية لابن كثير
٥ — سيرة ابن هشام
٦ — الاصابة لابن حجر
٧ — الفتاوى الكبرى لابن تيمية
٨ — سيرة سيد المرسلين للشيخ الخضرى
٩ — كتب اللغة وتعليق الشيخ محيى الدين عبد الحميد على سيرة ابن هشام

رقم الإيداع ٨٢/٥٠٥٤

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار ( لاظوغلى ) القاهرة
ص ٠ ب : ٥٨ ( الدواوين ) تليفون : ٢٢٠٧٩